

الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية

بقلم الاستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

الطبعة السادسة سنة ١٣٧٥ هـ

مطبعة نهضة مصر بالفجالة



الإسلام والنصرانية
مع العلم والمدنية

بقلم الاستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

الطبعة السادسة سنة ١٣٧٥ ﻫ

بمطبعة نهضة مصر بالفجالة | رقم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السادسة

بقلم الصاغ أمين شاكر

السكرتير العام المساعد للمؤتمر الإسلامى

من أهم أغراض المؤتمر الإسلامى التى يعنى بها ، ويعمل جاهداً على تحقيقها نشر الثقافة الإسلامية والنهوض بالمستوى الاجتماعى والثقافى بين المسلمين فى ربوع البلاد الإسلامية المختلفة .

ومن الوسائل التى عمد إليها المؤتمر فى سبيل تحقيق هذه الغاية أن ينشر ما يقع عليه اختياره من الكتب الإسلامية القيمة بعد إعادة طبعها وإخراجها فى ثوب قشيب لينتفع بها أكبر عدد من القارئين ، ويهتدى بهديها من يريد الله به خيراً من المترددين .

ولقد كان اختياراً موفقاً أن نبدأ بكتاب لأحد الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين ، ألا وهو الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده الذى وقف فى وجه أهل البدع ، والذى قرب العقائد إلى الأفهام ، وحسر عنها ظلال الإبهام ، وقطع ألسنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة الناهضة ، والحجة الملزمة .

وها هو كتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » وقد تناول فيه الأستاذ الإمام بالشرح والبيان أصول الإسلام وآثارها فى المسلمين الأولين ، واشتغالهم بالعلوم العقليـــة والكونية ، وتشجيع الخلفاء والأمراء على نشر العلم والأخذ بيد العلماء وتساهل المسلمين مع أهل النظر فى كل ملة ، ثم أتبع بمـا انتاب المسـلمين بعد ذلك من جمود مع بيان أسبابه وطرق علاجه .

وقد كان لنشر ما تضمنه هذا الكتاب من آيات بينات — كما يقول جامعه الأستاذ المرحوم السيد محمد رشيد رضا — من التأثير فى عالم العلم والدين ما لم يره لكلام أحد من الكاتبين ، طارت به اغتباطاً قلوب المسلمين ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين .

والله نسأل أن يحقق الغرض المرجو من نشر هـذا الكتاب ، وهو ولى التوفيق .

القاهرة فى ٢٨ شوال سنة ١٣٧٥
٧ يونيو سنة ١٩٥٦

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١٦ : ١٢٥ ».

ظهرت فى العالم مدنيات ثم خفيت ، ودرست فيها العلوم والفنون ثم درست ، وصلحت أحوال الأناسى ثم فسدت ، وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت ، ولم يزل الناس فى قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، والأمم فى تلاش وفناء ونشوء وارتقاء ، حتى استعد المجموع فى جملته للرقى العام ، فمنحه الله تعالى دين الإسلام .

جاء الإسلام والعالم كله فى تأخر من جميع الوجوه أو الجهات : من جهة الدين ، من جهة العلم ، من جهة المدنية ، من جهة السياسة ، فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله ديناً قيما ، وعلماً محكماً ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله فى مشارق الأرض ومغاربها بقوة الحق ، وسرعة البرق ، فتغير به وجه الأرض ، ونفخ فى الانسان روحاً جديداً

أعطاه من جراثيم الحياة مالا يقبل الفناء ، ما دامت الأرض والسماء (١)

ينبوع تفجر فى أرض وفاض ماؤه على غيرها ، فأحيا الأرض بعد موتها ، ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضاً من خرائب جيرانهم، فغيض الماء ، ومابقى منه صار مستنقعات تحتوى ، ولم يلبث بعد ماغاض أن فاض منه شيء فى مواضع أخرى ، فانتفع أهلها به وحافظوا عليه ، ولكن الأكثرين منهم لا يعرفون من أين جاءهم ، كما أن أكثر أهل الينبوع المنتسبين إليه بالاسم لا يعرفون أن ذلك الماء الذى تفجر فى تلك المواضع ، فأنشأ أهلها به حدائق ذات بهجة هو من ماء ينبوعهم ، وأنهم لو أزالوا عنه تلك الأنقاض لفاض ورجع إليهم به خصبهم ونماؤهم كأحسن ما كان ، إذا هم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء للأحياء .

ذلك مثل المسلمين اليوم مع الأمم الغربية الحية الراقية : أخذ الغربيون من الاسلام كل أصول الإصلاح الذى هم فيه ، وهم يقولون:

---

(١) بينا أن أركان الاصلاح الاسلامى غير قابلة للهدم فى مقالات متعددة نشرناها فى مجلات المنار . كمقالات « الإصلاح الدينى » والمقالة التى فاتحتها (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ومقالات « سلطة مشيخة الطريق الروحية » وفيها الكلام على تقييد الاسلام السلطتين ، السياسية ، والدينية ، وجعل الناس سواء ، وكل هذا فى المجلد الأول ، وكمقالة « الجنسية والديانة الاسلامية » فى المجلد الثانى ومقالة « إعادة مجد الاسلام » ومقالات « مدنية العرب » فى المجلد الثالث وكمقالات « الحكومة الاسلامية والقضاء فى الاسلام » فى المجلد الرابع .

٧

إن الإسلام عقبة فى طريق كل إصلاح ، ويقولون للمسلمين : إن ماءنا صاف نقى يحيي البلاد والعباد ، وماءكم آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرث والنسل . فكيف يستوى الماءان ، وقد اختلف الأثران ؟ منهم من يقول هذا معتقداً ، ومنهم من يقول منتقداً ، ونحن ساكتون عنهم ، لأننا جاهلون بأنفسنا وبهم .

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) ويظهر الحق من الباطل ، فتقوم الحجة على الجاهل بدينه ونفسه، والمكابر لوجدانه وحسه (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى) فيرجعوا إلى أصول دينهم ، وهو الأولى بهم والأحرى ، فقد أعدهم بنوائب الزمان ، وصروف الحدثان ، لأن يعترفوا بذنبهم ، وينيبوا بالتدريج إلى ربهم ، إذ ظهر فيهم علماء ربانيون ، وأطباء روحانيون ، يعرفونهم حقيقة الداء ، ويصفون لهم نقى الدواء ، وما طلب الإنسان بلسان استعداده شيئاً من مولاه ، إلا تفضل عليه به وأعطاه إياه [1]

لهذا سخر الله للسلمين حكيما من الأعلام ، وإماماً من أئمة الاسلام ، يطب لدائهم ، ويجمع ما تفرق من آرائهم ، وقد كتب فى هذه الأيام كتابة جليلة فى العلم والمدنية ، بالنسبة إلى الديانتين النصرانية والاسلامية ، رد فيها على أحد كتاب المسيحيين قوله :

---

(١) راجع مقالة (الإصلاح والإسعاد ؛ على قدر الاستعداد) فى المجلد الرابع من المنار .

إن المسيحية كانت أكثر تسامحاً مع العلم من الإسلام ، وإن الإسلام أكثر اضطهاداً للعلم والفلسفة من النصرانية . وبين فى آخر ما كتبه حال المسلمين السوءى ، وعدم موافقتها لما تقتضيه طبيعة دينهم ، فبرأ الإسلام وسلفه من الملام ، ولكنه لم يبرىء المسلمين المتأخرين ، بل دلهم على حقيقة دائهم ، وهداهم إلى طريقة معالجته ، والخروج منه باذن الله تعالى . ولعمرى إنه أنذر فأعذر ، وبرأ من وعيد الكتمان (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) .

والكاتب المسيحى هو رصيفنا الفاضل صاحب « مجلة الجامعة » وقد تكلم فى المقابلة بين الدينين المسيحى والإسلامى بالنسبة إلى العلم والفلسفة فى ترجمة ابن رشد ، فساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ، ولمسألتين أخريين ، أهمهما عزو إنكار الأسباب إلى علماء الكلام ، والثانية ما تضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الأكبر فى الأندلس . وقد رد حكيمنا على الجامعة فى كل ما أخطأت به من الكلام فى فلسفة ابن رشد والمتكلمين ، ومن المقابلة بين الديانتين ، ونشرنا ذلك كله فى المنار .

فأما الكلام فى فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لا يكاد يفيد إلا الخواص من العلماء والمتكلمين . وأما الكلام فى المقابلة بين الدينين من حيث أثرهما فى العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص ، بل هو الشفاء لما فى صدور الناس ، والضياء للباحثين

فى حنادس الحيرة والوسواس ، لهذا رأيت أن أجمعه فى كتاب مستقل وأطبعه ليعم نفعه [١] واستأذنت الكاتب فى ذلك فأذن فأنفذت ، وعلى الله توكلت .

وأحب أن يكون حظ كل مسلم من هذا الكتاب أن يجتهد فى الأخذ بأصول دينه المشروحة فيه ، وأن يقتدى بكرام سلفه فى جدهم واجتهادهم وسيرتهم مع المخالفين لهم فى الاعتقاد ، ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيرى الدنيا والآخرة ، وأن سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأن غيرنا ليس كذلك ، لأن كل هذا حجة علينا لا لنا ، وهو لا يغنى عنا شيئاً فى دنيانا ولا فى آخرتنا (١٩ : ١٧ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) . محمد رشيد رضا

منشىء مجلة المنار

تنبيه : كتبنا هذه المقدمة للطبعة الأولى التى طبعت فى عهد الأستاذ الامام ثم صرنا نعيدها فى كل طبعة ، وقد اعتدى بعض الكتبية بعد وفاته علينا فطبع الكتاب ، فرفعنا عليه قضية كان وكيلنا فيها حموده بك عبده أخو الأستاذ رحمهما الله تعالى فحكمت المحكمة بأن حق الطبع لنا وحكمت لنا على الطابع المعتدى بالتعويض المالى.

---

(١) قد بدا لنا أن نضيف إلى هذه الطبعة ما رد به الأستاذ رحمه الله تعالى على مجلة الجامعة فى فلسفة ابن رشد أيضاً لما بيناه فى مقدمتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول من الكتاب فى النصرانية

اضطهاد العلم والمدنية فى النصرانية

قال الأستاذ الإمام الحكيم رحمه الله وأثابه :

ذكرت الجامعة — فى الجزء الثامن من السنة الثالثة فى سياق الكلام على ما جرى لابن رشد — أن للناس آراء فى : هل الدين المسيحى أوسع صدراً فى احتماله مجاورة العلم والفلسفة ، أو أن الدين الاسلامى هو الأرحب خلقاً ، والأوسع حلماً من الدين المسيحى فى قبول أهل النظر فى الكون إذا نزلوا بداره ، ولاذوا بجواره ؟ وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحى مع العلم وأهله دون الدين الاسلامى : أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر ، وابن رشد لم يقل شيئاً سوى انه قرر ماقال أرسطو وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ، ومع ذلك أهين وبصق على وجهه ، وللقائلين بسعة حلم الإسلام : أن الإسلام لم يحكم باحراق أحد لمجرد الزيغ فى عقيدته ، وكم حكمت المسيحية بذلك .

ثم جعلت أهل الرأى الأول آخر من يتكلم وقالت « فيرد

عليهم الأولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معاً ؟ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن التى قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت أممهم ، وفرقت كلمتهم ؟ فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للانسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة » اه .

ثم قالت الجامعة : إنها لا تفصل بين القولين ، ولكنها فصلت فيهما فصلين (الأول) فى قولها « إنا نرى أن السلطة المدنية فى الإسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع ، لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً ، وبناء على ذلك فان التسامح يكون فى هذه الطريقة أصعب منه فى الطريقة المسيحية فان الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلا بديعاً مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقى ، وذلك بكلمة واحدة « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على ذلك فان السلطة المدنية فى هذه الطريقة إذا تركت للسلطة الدينية مجالا للضغط على حرية الإفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن قتلهم ، وسقى الأرض بدمائهم البريئة ، فانها تجنى جناية هائلة على الإنسانية ، وعلى ذلك لا يكون فى هذه الطريقة من التسامح أكثر مما فى تلك ، إذا بدا منها نقص ، ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لأنه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام » .

والفصل الثانى فى قولها « إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحى . ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا وأينع وأثمر التمدن الحديث ، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامى وفى ذلك دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً ».

الجواب الإجمالى

وإنى أعجل فى الجواب بما يلائى هذين الحكمين إجمالا : أما الأول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأى بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة . قال فى سورة البقرة (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) وقال فى سورة الكهف (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

وأما الثانى فأسأل الجامعة فى جوابه : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون ؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وأمثالهم . وكيف ساغ لها أن تقول ما تقول وهى فى أرض مصر ومصر بلاد إسلامية وحالها كما ترى ؟ فاذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم ، فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين

فى مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأمريكان وهى مدارس دينية خصوصاً مدارس الجزويت . فهل يمكننى أن أجد طالباً واحداً مسيحياً فى مدرسة دينيه إسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أى ملة ؟ لانجد إلا قليلا منهم فى مدارس الحكومة لعلمهم أنها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين ، فهل سمع أن والداً اضطهد لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ ألا يعد هذا من تسامح الإسلام مع العلم اليوم ؟ (١)

ولولا أن موضوع كلامى محدود باعتبار التسامح بالنسبة إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أنه يوجد فى بلاده طائفتان تعد آحادهما بالألوف ، وتزعم كل منهما أن لها نسبة إلى الإسلام ، وهى تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول، ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة. وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة ، لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات ، وإنما اختلفوا فى قبول توبة من تاب منهم ، ومن العلماء من قال لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ، ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة ، وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والإسلام فى أوج القوة ، ودخلوا فى حكم

(١) مثله اشتراك المسلمين فى الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى فى الجرائد الاسلامية الا نادرا

الأتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم ، قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم ، وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفى مكنتهم محوهم ، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين ؟

غير أن موضوع قولى محدود كما قلت فلا أخرج عنه ، وأرانى نطقت فيه بكلمتى المجملة . ولكن لا يكفى لبيان ماعرّضت به الجامعة فى قولها « هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أومع القريب والغريب الخ » ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به فى حكميها إلا تفصيل تعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارىء على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم .

الجواب التفصيلى

أرى الجامعة جاءت فى كلامها بأربعة أمور ، آتى بها على حسب ترتيب النسق فى تعبيرها (الأول) أن المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الأديان الأخرى (الثانى) أن من الطوائف الإسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) أن طبيعة الدين الإسلامى تأبى التسامح مع العلم

وطبيعة الدين المسيحى تيسر لأهله التسامح مع العلم (الرابع) أن إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تمتع به الأوربيون ببركة التسامح الدينى المسيحى. فلا بد لى من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الأربعة ، وأبتدىء منها بالثانى لقلة الكلام عليه .

نفى القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والأشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزله مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة ، كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها ، نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج ، كما وقع من القرامطة وغيرهم ، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف فى العقائد ، وإنما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الأمة ، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة ، وهى بالسياسة أشبه ، بل هى أصل السياسة .

نعم وقعت حروب فى الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة ، وهى ماوقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية ، وبين الحكومة العثمانية والوهابيين ، ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها

كانت حروباً سياسية ، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف فى العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين . (١)

وأما الحروب الداخلية التى حدثت بعد استقرار الخلافة فى بنى العباس ، وأضعفت الأمة ، وفرقت الكلمة ، فهى حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم ، وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم ، وارتخاء حبل التمسك به فى أيديهم . وأكبر داء دخل على المسلمين فى هممهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول « الجهلة » وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ، ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم فى إحدى اليدين وماقرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم .

مالنا وللحكام نعرض لهم ؟ الذى على أن أقول ولا أخشى منازعاً : انه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد

(١) لعل الأولى أن يقال : من أمراء الوهابيين ، وقد وقع بمدوفاة الأستاذ بسنين بين ابن السعود أمير الوهابيين العام وبين الدولة صلح اعترفت له الدولة فيه بالاستقلال التام مع نوع من الارتباط بها .

أو على تركيا ، على أن هـذا الأمر الذى جاءت به الجامعة وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة، لأن الكلام فى التسامح الدينى مع العلم لا فى تسامح عقيدة مع عقيدة ، أو دين مع دين ، وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض، وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا .

هل أذكرها بما كان يقع فى القسطنطينية من سفك الدماء بين الأرثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين ؟ هل أذكرها بحادثة برتلمى ستبهلير التى سفك فيها الكاثوليك دماء اخوانهم البروتستانت وأخذوهم فى بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا ؟ بماذا أذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التى اسودلها لباس الانسانية وتسلبت لحدوثها البشرية؟ هل يمكن لأحد أن يروى حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف فى العقيدة مهما عظم الاختلاف .

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع إلى الأمر الأول من الأمور الأربعة ، لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث . وانى لا أستدل على رعاية الإسلام على الحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم ، وانما أرجع فى جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين ، وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة

المسلمين وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم .

قال المستر درابر أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الأمريكان « إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ، ورقوهم إلى المناصب فى الدولة حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه » (هو يو حنا بن ماسويه الشهير) وقال فى موضع آخر : « كانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأى وسعة الفكر من الخلفاء إلى النسطوريين تارة ، وإلى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذى ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفه . قال الخليفة العباسى الأكبر المأمون : الحكماء هم صفوة الله من خلقه ، ونخبته من عباده ، لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة ، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة ، هم ضياء العالم ، وهم واضعو قوانينه ، ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية » وقال فى موضع آخر « إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين »

ولست فى حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس ، وبنوا من المراصد ، وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب ، لأن هذا

خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور، كان فيلسوفاً كبيراً أعلت منزلته عند المنصور، لأنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى، فأشفق عليه المنصور وأنفذ إليه بثلاث جوار حسان فردهن وقال: إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي مادامت حية، فأعلى مكانته حتى على وزرائه، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة، وخرج إليه ماشياً يسأل عن حاله، فاستأذنه الحكيم في رجوعه إلى بلده ليدفن مع آبائه، فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة فقال: رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالإمساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله إذا مات في الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب. ثم سأله عمن يخلفه عنده، فأشار إلى عيسى بن شهلاثا أحد تلاميذه، فأخذه المنصور مكان جيورجيس، فطفق يؤذي القسوس والبطارقة، ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال رغائبه، فشعر الخليفة بذلك فطرده.

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل، وكانا فارسيين على مذهب الفرس، ثم كانت ذرية مسلمة لأبي سهل، وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة.

ومن حظى بالمكانة العليا عند الخليفة المهدى تيوفيل بن توما النصرانى المنجم ، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب فى التاريخ جليلة ، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية بأفصح عباره .

ومن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب ، وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصرانى السريانى ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة ، طبية وغيرها ، وخدم الرشيد ومن بعده إلى المتوكل . وكان يعقد فى داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع فى بيت للمذاكرة فى العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما يجتمع فى بيت يوحنا بن ماسويه .

ومن علا قدره فى زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أمينا على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفه . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور ، وسابور ابنه ، وكانا نصرانيين ، وولى سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور .

وكان سلمويه بن بنان النصرانى طبيباً عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعاً شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فأجلسه بجانبه وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل إلى النيفق (وهو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب

بخبل فى عقله) يحتاج إلى الشد؟[1] فقال بختيشوع : إذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه ، فضحك المتوكل حتى استلقى .

وفى أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحاق النصرانى العبادى ، وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره ، وامتحن المتوكل صدقه ، فظهرت له عزيمة لا تفل ، فأقطعه اقطاعات واسعة . وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة فى زمن المأمون وهو فتى ، فكلفه بترجمة الكتب ، وكان يعطيه وزن مايترجم ذهباً . وكانت بينه وبين الطيفورى النصرانى محاسدة أفضت إلى طلب الحكم على حنين فى مجلس الأساقفة بالحرمان من الكنيسة ، فمات غماً لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة . وهذا الطيفورى أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء .

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصةوالعامة فىزمنه أيام خلافة الراضى متى بن يونس المنطقى النصرانى النسطورى ، كان متفنناًفىجميع العلوم العقلية ، أخذ عنه أبو نصر الفارابى ، وانتهت إليه الرئاسة فى بغداد ، وكان من أهل دير قنى ، ونشأ فى مدرسة مار مارى ، وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين .

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكى ، من فلاسفة دولة

(١) يعنى بالشد هنا ايثاق المجنون بالحبل حتى لا يؤذى الناس

الاسلام ، وهو نصرانى طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة . ثم يحيي ابن عدى بن حميد بن زكريا المنطقى، انتهت إليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية فى وقته ، وقرأ على متى بن يونس وعلى أبى نصر الفارابى .

ومنهم أبو الفرج ابن الطيب فيلسوف عالم ، قالوا : كان كاتب الجاثليق (١)، ومتميزاً فى النصارى ببغداد ، وكان يقرىء صناعة الطب فى البيمارستان العضـــدى ، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا ، والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه .

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصـــة والعامة ، ثابت بن قُرة الحرانى الصابىء من طائفة الصابئين المعروفة ، وتربى فى بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكى المشهور ، وبلغ فى علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره ، وله تآليف كثيرة فى المنطق والطب والرياضيات ، وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين بحران ، ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة ، وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ما علمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة .

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الإسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام ؟ هل

(١) والجاثليق (بفتح الثاء) وكان لقبا لرئيس النصارى فى بلاد الإسلام بمدينة السلام . وكان فوق البطريق ، وتحت يده المطران . الفرابى

تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الإسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا فى حاجة إلى ذكر فيلسوف الإسلام أبى يوسف يعقوب الكندى — وهو بصرى الأصل — ابن الأمير إسحاق الذى كان أميراً للمهدى والرشيد على الكوفة ، وهو من ذرية الأشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان عالمـــاً بالطب والفلسفة والهيئة والحساب والموسيقى ، واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بهـا فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منهـا ، وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد ، هل أنا فى حاجة إلى ذكر بنى موسى بن شاكر : محمد وأحمد والحسن الذين اشتغلوا فى مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الأمراء والخلفاء ؟ أأذكر بن سيناء ومنزلته فى قومه ، ووصوله إلى مسند الوزارة عند شمس الدولة ، أم أذكر الفارابى وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان ؟

لا ريب أن أبا العلاء المعرى يصلح أن يكون رجلا ممن تعنى «الجامعة» بنشر تراجمهم ، وقد قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو ، وقدمات مع ذلك على فراشه ، وقبره اليوم مزار يرحل إليه فى بلده .

أظن أنه يسهل بعد سرد ماعددناه أن يعرف قراء «الجامعة» أن الإسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد

وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل على أن ألتمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل إنها حدثت للدين وما حدثت له . بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء ، أو جهالة عمياء ، أو تأريث[1] بعض السفهاء .

لا أطيل خوف الإملال، وأنتقل الآن إلى الأمر الثالث ، وهو المقابلة بين طبيعة الدينين ، وهو أهم مما سبق ، ومما سيلحق

طبيعة الدين المسيحى

تمهيد

ظنت الجامعة أن الدين المسيحى فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، ولذلك كان فى طبيعته التسامح . أما الدين الاسلامى فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة دينى ، وذلك مما يصعب معه التسامح فى رأيها .

ليس هذا بكاف فى بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم ، أو مع أية عقيدة تخالفها ، بل لابد من بيان أركان الدين ، وأهم أصوله التى ترجع إليها جميع الفروع ، وعنها تصدر الآثار الحقيقية .

عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا ، يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التى ربما تكون جاءتهم من دين آخر ، فإذا أريد أن

(١) التأريث : الإغراء بين القوم وإيقاد النار بينهم . الغرابي

يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله ، فليؤخذ فى ذلك بقوله أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين ومن تلقوه على سذاجته [1] التى ورد بها من صاحب الدين نفسه .

وإنى أوجز القول فى إيراد الأصول الأولى التى وردت فى الأناجيل المعروفة الآن فى أيدى المسيحيين ، وجاءت فى كلام أئمتهم الأولين ، ثم إيراد ماجر إليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين

الأصل الأول للنصرانية الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحى وأقوى عماد له هو خوارق العادات ، تقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق وعددها فى الأناجيل يطول شرحه ، ثم إنه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتى بعده ، فجعل لأصحابه ذلك كما تراه فى الأصحاح العاشر من انجيل متى وغيره ، إذا تتبعت جميع ماقال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات ، على صحة الاعتقادات ، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذى يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه ، فاذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه فى الدين ، لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص .

زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان ولو كان مثل حبة خردل كاف

---

(١) يظهر أن المؤلف يريد بكلمة « سذاجته» بساطته الأولى وحالته التى جاء بها على ألسنة الرسل قبل أن تضاف إليه ثقافات أجنبية من أهله . الغرابي .

فى خرق نواميس الكون ، كما قال فى الاصحاح السابع عشر من متى ١٠ : « فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » وفى الحادى عشر من مرقص ٢٣ « لأنى الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولا يشك فى قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فهما قال يكون له ٢٤، لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم »

فكل بحث يؤدى إلى أن للكون شرائع ثابتة ، وان للعلل والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاماً فى معلولاتها أو ماشرطت فيه أو ماتسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها ، كان مضاداً لهذا الأصل فى أى زمن . وقد كان كل علم من علوم الأكوان لابد فيه من هذا البحث ، فكل علم مضاد لهـــذا الأصل ، ثم ان صاحب الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج إلى البحث فى الأسباب والمسببات لأن اعتقاده فى الشيء أن يكون وارادته لأن يكون كافيان فى حصوله ، فهو فى غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد . فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه فى سلطانه .

الأصل الثانى للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر ، وهو السلطة الدينية التى منحت للرؤساء على المرؤوسين فى عقائدهم ، وما تكنه ضمائرهم ، وقد أحكم

هذه السلطة ماورد فى ١٦ : ١٩ من انجيل متى : « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا فى السموات » وفى ١٨ : ١٨ منه « الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء . وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء» .

فاذا قال الرئيس الكهنوتى لشخص إنه ليس بمسيحى صار كذلك ، وإذا قال إنه مسيحى فاز بها . فليس المعتقد حراً فى اعتقاده ، يتصرف فى معارفه كما يرشده عقله ، بل عينا قلبه مشدودتان بشفتى رئيسه ، فاذا اهتزت نفسه إلى بحث أوقفها القابض على تلك السلطة . وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناً طوالا .

الأصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الأصلين أصل ثالث ، وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة . تجد هذا الأصل فى الأناجيل وفى أعمال الرسل ، وكلما قرأت فى الكتب الأولى عثرت به . وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع إلى الملكوت ، والهروب من عالم الملك صريحة فى الإصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل متى . فمما جاء فى السادس : «لاتقدرون أن تخدموا الله والمال: ٢٥» لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما

تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ إلى أن قال : ٣٣ « ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه تزاد لكم : ٣٤ فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفى اليوم شره » وقال فى التاسع عشر : ٢٣ « الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات : ٢٤ « وأقول لكم أيضاً إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » وفى العاشر : « ٩ — لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم — ١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ »

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفى ذلك قطع النسل البشرى قال فى (١٩ : ١٠ من متى « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل »

ثم ان ملكوت السموات قد نيط أمره بالإيمان المجرد عن النظر فى الأكوان ، فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الأصل من النظر فى أى علم ، والعلم لا دخل له فى شئون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه ؟ لا ريب أن همه يكون فى الصلاة وصرف القلب بكليته إلى العبادة دون سواها . وليس الفكر فى الخليقة من العبادة عنده فان عبادة الانجيل ليست شيئاً سوى الإيمان والصلاة .

الأصل الرابع للنصرانية

الإيمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول أصل رابع وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول ، لايختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت ، وهو أن الإيمان منحة لادخل للعقل فيها ، وأن من الدين ماهو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل ، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به . قال القديس أنسيلم « يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت » فليس الإيمان وهو الوسيلة الفردية إلى النجاة فى حاجة إلى نظر العقل ، والكون ومافيه لايهم المؤمن أن يجيل فيه نظره . وقول القديس « ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت » نوع من التفضل على النزعة البشرية إلى الفهم [1] وعلى الميل الفطرى إلى تصور ما يتعلق به الاعتقاد ، والافجرد الإيمان كان فى الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم إذا أدى اجتهاده إلى شىء يخالف ماتعلق به ايمانه فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلى به نفسه على إيمانه بغير المفهوم .

---

(١) الى الفهم متعلق بالنزعة وهى النزوع والميل .

الأصل الخامس للنصرانية

أن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد

ثم ينضم إلى الأصول الأربعة خامس، وهو أن الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوى على كل ما يحتاج البشر إلى علمه سواء كان متعلقاً بالاعتقادات الدينية، والآداب النفسية، والأعمال البدنية، مما يؤدى إلى نيل السعادة فى الملكوت الأعلى، أو كان من المعارف البشرية التى يتأتى للعقل الإنسانى أن يتمتع بها.

قال تيرتوليان — وهو أفضل من وصف الإعتقاد المسيحى فى نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة — «إن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية، ودليل صحة هذه الكتب قدمها وكونها أقدم من كتاب أميروس، وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين، وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها، والزمن ناصر الحقيقة، ثم تحقق النبوات التى وردت فيها» ثم قال. «إن أساس كل علم (عندهم) هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة، وإن الله لم يقصر تعليمنا بالوحى على الهداية إلى الدين فقط بل علمنا بالوحى كل ما أراد أن نعلمه من الكون، فالكتاب المقدس يحتوى من العرفان على المقدار الذى قدر للبشر أن ينالوه» فجميع ما جاء فى الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيها وتاريخ الأمم — مما يجب تسليمه مهما ضاربه

العقل أو خالف شاهد الحس — فعلى النـاس أن يؤمنوا به أولا ، ثم يجتهدوا ثانيا فى حمل أنفسهم على فهمه أى على تسليمه أيضاً كما ترى .

وقال بعض فضلائهم : إنه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس .

الاصل السادس للنصرانية

التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين :

ينتظم تلك الأصول كلهـا أصل سادس وهو آخرها فيما أرى ، ذلك الأصل هو الذى ورد فى الإصحاح العاشر من انجيل متى وهو : « ٣٤— لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ، ماجئت لألقى سلاماً بل سيفاً —٣٥— فانى جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها—٣٦— وأعداء الانسان أهل بيته » .

وقد صرح فى عدة مواضع من الانجيل أن الإخلال بشىء من محبة المسيح أو بالانقياد إلى جميع ما أوصى به موجب للهلاك وإن كان قد جاء فى مواضع كثيرة أن الايمان وحده كاف فى الخلاص ، غير أن روح الشدة التى جاءت فى قوله « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً الخ» هى التى بقى أثرها فى نفوس الأولين من المعتقدين بالدين المسيحى، وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر .

نتائج هذه الأصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه ، إظهاراً للغنى بالإيمان والعبادة عن كل شىء سواهما ، وحجروا على همم النفوس أن تنهض إلا إلى الدعوة إلى ذلك الإيمان ، وتلك العبادة ، ووسائل الدعوة هى الإيمان والعبادة كذلك ، فإذا نزعت العقول إلى علم شىء من العالم ، وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم ، وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحى عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته ، وليس يسوغ لكل ذى عقل فهمه ، بل إنما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفاً من الزيغ عن الإيمان السليم — البروتستانت رأوا أنه يجوز لغير الكنيسة تفسير الكتاب المقدس — [1] ثم إن إلقاء السيف ووضع التفريق بين الأقارب والأحبة إنما جاء حافظاً لذلك كله ، فإذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمى إلى معارضة شىء من أمور الإيمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ، ولم يجز فى شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة ، كما أفهمه المسيح بعمله ، على حسب ما ورد فى الإنجيل فقد قيل له : « ٤٧ — أمك وإخوتك

---

(١) هذه جملة استدراكية معترضة لدفع اعتراض من يحتج على إطلاق الحكم بحصر فهم نصوص الدين فى رؤساء الكنيسة وقد كفر هؤلاء الرؤساء البروتستانت بهذه البدعة وغيرها .

واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك — ٤٨ — فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ومن هم إخوتي؟ — ٤٩ — ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي » ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده . ولا يخفى أن الشيء يكون بذرة ثم نبتاً ثم شجراً فانظر إلى ما صار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة .

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم ، وتقرر عند القوم قاعدة « إن الجهالة أم التقوى » (وكثير من أهل الأديان — مسيحيين ومسلمين — لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ماورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الأديان ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير الإيمان على وجه ظاهر ، وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره .

ظهرت ذات الذنب التي تنسب إلى هالي [1] في سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها أوربا ، ولجأوا إلى البابا واستجاروا به فأجارهم وطردها من الجو ، فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة !!

---

(١) أي ظهر النجم ذو الذنب الذي ينسب إلى « هالي » ولا أدري كيف فاتني مراجعة الكاتب « رح » في تأنيث هذا النجم بوصفه بذات الذنب وكذا التعليق عليه بعده . .

لم يكن يسمح لأحد أن يبدى رأياً يخالف صريح ما فى الكتاب وعند ما أظهر «بلاج» رأيه فى أن الموت كان يوجد قبل آدم ، أى أن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطىء آدم بالأكل من الشجرة ، قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة ، وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر امبراطورى بقتل كل شخص يعتقد ذلك. يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على الملك .

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالأسكندرية على عهد جول قيصر، ثم إن تيوفيل بطريرك الاسكندرية انتحل أدنى الأسباب لإثارة ثورة فى المدينة ، لإتلاف ما بقى فى مكتبة البطالسة بعضه بالإحراق وبعضه بالتبديد . قال أوروسيوس المؤرخ : إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال تيوفيل الأمر الإمبراطورى بإتلافها بنحو عشرين سنة .

ثم جاء بعد تيوفيل بن أخته سيريل ، وكان خطيباً مفوهاً له على الشعب سلطان بفصاحته وكان فى الإسكندرية بنت تسمى هيباتى الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة ، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النظر فى العلوم الرياضية ، وكان لا يخلو مجلسها من البحث فى أمور أخر خصوصاً فى هذه المسائل الثلاث : من أنا ؟ وإلى أين أذهب؟ وماذا يمكننى أن أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القديس سيريل ، مع أن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين ، فأخذ يثير الشعب

عليها ، حتى قعدوا لها وقبضوا عليها فى الطريق سائرة إلى دار ندوتها ، وجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ، ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقى منها ألقى فى النار . يقول المؤرخ راوى هذه القصة : ولم يسأل سيريل عما صنع بهيباثى ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ، ولعل ذلك كان أول ما تقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة » .

ما من عقيدة ظهرت فى المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق إلا وقد سالت لها الدماء ، فلتراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عند ما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما . كان ذلك فى طبيعة الدين : ان من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق الحياة . ألم تر فى الإصحاح الخامس من الأعمال إلى قصة الرجل الذى باع جميع ما عنده ، وعند ما جاء إلى بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه ، فاطلع بطرس على حقيقة الأمر ، ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزه ، ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنبه ، فوبخها بطرس ، وأخبرها بموت زوجها ، فماتت هى أيضاً . فاذا كان الله يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسل ، فكيف تكون الحياة من حقه إذا خالف خلفاء الله فى الأرض ونابذهم فيما يعتقدون ؟

قال البابا أنو ثان الثالث ـ عند الكلام فى مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية ـ « لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة وترك الحياة لهم مَنٌّ واحسان » فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عداه إلى أولادهم ، وعد ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضربا من الإحسان عليهم ، لأنهم لا حق لهم فى أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم.

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد فى التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية فى مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا فى أثناء المنازعات الدينية التى كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك ، وأخرى بجمع المجامع ، وثالثة بسفك الدماء ، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون ، وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك فى الدماء باغراء رؤساء الكنيسة ، وأمر ذلك معروف عند من له المام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه .

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر فى أوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه فى بلاد الأندلس ، واحتكاك الأوربيين بالمسلمين فى الحروب الصليبية .

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم وحملوا إلى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص ، وهم وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة . فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة وذوى ود ووفاء وفضل مجاملة .

ثم كان الخليفة الحكم الثانى ، جعل من بلاد الأندلس فردوساً كما قال الفيلسوف الأميركانى ، وكان اليهود والنصارى يتلاقون فى تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية . قال بطرس المحترم الشهير : إنه رأى كثيراً من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقى العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا ، وأولئك الذين يسعون إلى طلب العلوم من أى بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحباً وسعة ، وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعاً للكتب نسخ وتذهيب وتجليد إلى آخر ما قال .

ثم انتشرت صناعة الورق التى اخترعها العرب ، ثم وجدت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم ، بما جلب إليهم رسل العلم الذين حملوه إليهم من أهالى أسبانيا ، ومن حملوه مما جاوزها ثم انساب إلى العقول شيء مما سماه الأوربيون فلسفة ابن رشد ، عند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس،

أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما فى الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة .

قال دى رومنيس : إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد بل هى من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء ، فجلب إلى روما وحبس حتى مات ، ثم حوكمت جثته ، وكتبه فحكم عليها ، وألقيت فى النار ، وقيل فى علة الحكم : إنه أراد الصلح بين كنيستى روما وانكلترا ، وأى ذنب أعظم من هذا الصلح؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء .

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

أنشئت المراقبة على المطبوعات ، وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلَّفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذى عين للمراقبة ، وصدرت أحكام المجتمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يعرض على المراقب ، أو ينشر شيئا لم يأذن المراقب بنشره ، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شىء يومى إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ، ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجرى عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين) .

أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة، عندما خيف ظهورهما، بسعى تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته، خصوصاً فى جنوب فرنسا وايطاليا، أنشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركاندا.

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام فى مدة ١٨ سنة — من سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٤٩٩ — حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت، ثم أحرقت كل توراة بالعبرية.

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » ؟ وسيلة واحدة، هى أن يحبس المتهم وتجرى عليه أنواع العذاب المختلفة، بآلات التعذيب المتنوعة، إلى أن يعترف بما نسب إليه، وعند ذلك يصدر الحكم، ويعقبه التنفيذ.

قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد، وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر فى كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة، لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شىء من كتبه، وتحلية العقول ببعض أفكاره.

اشتدت محكمة التفتيش فى طلب أولئك المجرمين طلاب العلم

والسعاة إلى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها : فى المدن ، فى البيوت ، فى السراديب ، فى الأنفاق ، فى المخازن ، فى المطابخ ، فى المغارات ، فى الغابات ، وفى الحقول ، فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين، عملا بالقول الجليل « ما جئت لألقى سلاما بل سيفاً » .

كان يؤخذ الرهبان فى صوامعهم ، والقسوس فى كنائسهم ، والأشراف فى قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع فى مصانعهم والعامة فى بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وأينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة ، وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم .

قرر مجمع « لاتران » أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكى أمام القسيس فى الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلباً لغفرانها) .

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدى القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه فى بيته ، وما يظهره فى أعماله بين أهله ، فإذا وجد القسيس متلقى الاعتراف شيئاً من الشبهة فى طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه ، رفع أمره إلى المحكمة ، فينقض شهاب التهمة عليه . فاذا سأل عن الشاهد الذى عول عليه فى اتهامه لا يجاب ، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف .

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل أوربا ما خيل لكل من يلمع فى ذهنه شيء من نور الفكر ، إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه ، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ، من ورود الفكرة العلمية إليه ، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد « يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه » .

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم نحو مائتى ألف أحرقوا بالنار أحياء

اضطهاد المسيحية والمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذى تفجر منه ماء العلم والحرية فى أوربا على زعم القسوس ، وكان ابن رشد أستاذاً يتعلم عنده كثير من اليهود ، وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ، ثم هو مع ذلك مسلم ، صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً ، فصدر الأمر فى ٣٠ مارس (آذار) سنة ١٤٩٢ بأن كل يهودى لم يقبل المعمودية فى أى سن كان ، وعلى أى حال كان ، يجب أن يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل ، وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط ألا يأخذوا فى الثمن ذهباً ولا فضة ، وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات . ومن ذا الذى يشترى اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟ (يعنى

أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذى تم فى يوليو) وصدر أمر (توركماندو) أن لا يساعدهم أحد من سكان أسبانيا فى أمر من أمورهم . وهكذا خرج اليهود تاركين كل ما يملكون بأرواحهم على أنه لا نجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر

وفى فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذى وضع لليهود ، ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو ألا يذهبوا فى طريق يؤدى إلى بلاد إسلامية ، ومن خالف فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نفوا جميعاً إلى القتل إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العرى والجوع .

ألا يعجب القارىء إذا رأى أن (برونو) يحرق بالنار حيا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية فى وحدة الوجود ، وقال إن هذا العالم يحتوى على عوالم كثيرة ؟ الحمد لله رب العالمين .

* * *

ظهر القول بكروية الأرض — ذلك الأمر الذى عرفه المسلمون، وصار رأيا لهم فى أول خلافة بنى العباس ولم تتحرك له شعرة فى بدن — فأحدث اضطرابا شديداً فى عالم النصرانية ، ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث فى شأنه .

هل يصدق القارىء أن ما قصده كريستوف كولمب من السفر فى المحيط الاطلانطيق، لعله يكتشف أرضاً جديدة، كان من الأمور التى اهتمت لها الكنيسة، وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين، ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريز توم وأوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة، ولم ينتج هذا العرض شيئاً، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم. قال كريستوف كولمب «إن الذى أوحى إليه هذا القصد النبيل هى كتب ابن رشد» من هنا تفهم لم قامت الكنيسة وقعدت ؟

قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل «السلطة للقسوس والطاعة على العامة» كل رأى لم يصدر عن ذلك المصدر الدينى الذى يربط ويحل فى الأرض والسماء فهو باطل تجب مقاومتـــه بكل ما يستطاع، لهذا حكم على غاليلى الذى ذهب إلى أن حركة الكواكب هى على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم.

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد

هل تدرى ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين فى

الاستانة ، ثم نقلتها إلى أوربا امرأة تسمى مارى مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا فى استعمالها واحتيج فى تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك انكلترا ، وعادت هذه الشدة فى المعارضة عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدرى .

مقاومة تسهيل الولادة

أىّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق ، اكتشاف أمريكانى رأى حضرات القسوس فيه أنه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التى سجلت عليها فى سفر التكوين (إذ جاء فى الإصحاح الثالث منه : وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حملك ، بالوجع تلدين أولاداً) .

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد

نشر البابا منشوراً فى سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية ، أو جواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة ، أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه . وفى منشور له سنة ١٨٦٨ أن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم ، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ، ودعا الروم الأرثوذكس والبروتستانت إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه .

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات، رأى رأياً لا يروق للحزب الكاثوليكي، فحرمه البابا، وطلب من الحكومة عزله، وكانت إحدى المعضلات السياسية، غير أن عزيمة بسمارك نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة، وأبقت الأستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية.

(مقاومة الجمعيات العلمية والكتب)

لا أذكر الجمعيات العلمية (الأكادميات) التي ألغيت، والاجتماعات التي عطلت، لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر إلى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري، ومن الطريق العقلي، من غير استشارة المسيطر الإلهي، - وهو الكنيسة - ولكن أذكر شيئاً واحداً وهو أن الكردينال اكسيمنيس أحرق في غرناطة ثمانية آلاف كتاب بخط القلم، فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوربا لذلك العهد.

البروتستانت أو الإصلاح

ربما يقول قائل: إن هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية،، ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون ارجاع الدين إلى أصل الكتب المقدسة، ويبيحون للعامة أن ينظروا فيها ويفهموها،

وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول، ومن عهد ظهور الاصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالغرب، وبسط العلم بساط التسامح، وذلك لا يمكن أن يكون إلا جريا مع طبيعة الدين

لا أذكر فى الجواب عن ذلك إلا ماذكر البروتستانت أنفسهم فى تاريخ الإصلاح: استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة، وقد أمر كلفان [1] باحراق (سيرفيت) فى جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحى كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقة، وكان يقول: إن روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها » فكان جزاؤه على هذا أن شوى على النار حتى مات، وكذا أحرق (فاينى) فى تلوز سنة ١٦٢٩.

وكان لوثير أشد الناس إنكاراً على من ينظر فى فلسفة ارسطو، وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب، ونحو ذلك من الألقاب التى لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الدين فى طريق الدفاع عنه!! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوثير، لكنه لم يكن أحسن ظناً به ولا أوسع صدرا لمن يطلع على شيء من كتبه. وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف « المعلم الأول » فتأمل الفرق بين الفريقين!!

قالوا: البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية فى فهم الكتب

---

(١) كلفان هو الزعيم الثاني للبروتستانت ولوثر الأول

المقدسة وبإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هى نبراس الهداية فى طريق العلم البشرى ، كما أنها منبع نور الإيمان بالدين الإلهى ، وأنه لا يباح للعقل أن ينساق فى نظره إلى ما يخالف شيئاً مما حوته وأنه لا حاجة إلى شىء من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة أنهم لم يبطلوا أصلا من الأصول الستة التى تقدمت إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء فى سلطتهم المبنية على الأصل الثانى فى سابق قولنا .

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخف وطأة على العلم ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك ، لأن كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة (وهى القائمة على الأصول الستة) ولم يكن لأهل النظر العقلى جزاء فى كلتا الملتين إلا القتل وسفك الدم .

لو كنت ممن يحب الجدال فى الدين لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحى ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة . « ما أهون الدم على من يمثل فى عبادته أكل الدم ، وعلى من يعتقد أن إخلاص العالم الانسانى من الخطيئة إنما كان بسفك الدم البرىء على يد المعتدى الأثيم » لكنى فى بحثى هذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال ، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال ، وإنما آتى بما هو حكاية حال ، ليس للناظر فيها مقال

الفصل بين السلطتين فى المسيحية

بقى علينا الكلام فيما جعلته «الجامعة» أساساً للفصل بين السلطتين الدينية والملكية ، وبه كانت طبيعة الدين المسيحى أدعى إلى التسامح مع العلم فى نظرها ، لو سلمنا أن فى تلك العبارة معنى الفصل - كما قالت الجامعة ، وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية - فماذا يفيد الفصل إذا كان دين الملك نفسه يقضى عليه بمعاداة العلم ؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك ؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قرباناً لسلطان عقيدته ، هب أن مصالح الملك تكون دائماً أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الإيمان والوجدان ، وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين : إحداهما تحل وتربط فى الأرض وفى السماء فيما هو من خاصة الدين ، والأخرى تحل وتربط فى الأرض فيما هو من خصاصة الدنيا ، أفلا يكون هذا الفصل قاضياً بتنازع السلطتين ، وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معاً ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف فى أبدانهم وأموالهم بل وفى عقولهم أيدى الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفانى ؟ إذا كان ذلك التصرف مخالفاً لما جاء فى كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسنتهم ، فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الأخرى ؟ هذا هو الذى وقع فى العالم المسيحى منذ ظهرت سلطة الدين .

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عندحدها ؟ والسلطةالدينية إنماتستمد حكمها من الله ، ثم تمد نفوذها بتلك القوة إلى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء ، والملك لاقوة له إلا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينيه ؟

لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة إلا بعد أن يتناول الوسائل لإضعاف سلطتها . نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الأبدان التى يحكمها الملك يمكنها أن تأتى أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التى تحيا بها ، والأرواح كذلك تأتى أعمالها بدون الأبدان التى تحمل قواها .

ثم هل هذا هو معنى قول الإنجيل ؟ القصة على ما جاء فى الانجيل . إن بعض المرائين أراد أن يتسقط المسيح ليأخذ عليه ما ينم به فسأله : أيجوز أن نعطى جزيةلقيصر ؟ فأجاب : لم تجربونى ؟ ائتونى بدينار لأنظر إليه ، فأتوه بدينار فقال : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا : لقيصر ، فقال : اعطوا مالقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الظاهر من سياق القصة أن صاحب السكة التى تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئاً فأدفعوه له ، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ماهو من الله وعليه طابع صنعته ، فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً، العلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله ، فلايمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية . فأى تسامح مع العلم فى هذا ؟

اعتقاد المسلمين فى المسيح والمسيحية

هذا الذى عرضناه من طبيعة الدين المسيحى وأوردناه من مشاريه فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم ورواد المعارف فى كل زمن إلى ما يقرب من أيامنا هذه، كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذى كتبوه عن أنفسهم، ومن نصوص كتبهم الدينية التى يتوكأون عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم .

أما رأيي ورأى أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح عليه السلام ودينه فهو على غير ما رآه القارىء، إنا نعتقد أن المسيح روح الله وكلمته [1] ورسوله إلى بني أسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوراة، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم، ورشاد فى شؤون معاشهم ومعادهم، ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى منحهم الله تعالى إياها، بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها، ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها جميعاً فيما أعدها الله له . والعقل من أجل القوى بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر

---

(١) أى من روح الله ، فالإضافة بمعنى من، أو روح من الله لا من الشيطان وكلمته التكوينية أى إرادته المعبر عنها بقوله للشيء (كن فيكون) قال تعالى فيه (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وقال فى أمه (فنفخنا فيه من روحنا) .

فيها وكتابه الذى يتلوه ، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل وصول إليه . وكل ما صح عندنا عن السيد المسيح لا يخالفه شيء منه ، هذا الذى نعتقد ، فان صح عنه شيء يكون فى ظاهره مخالفة لهذه الأصول ، أمكننا تأويله حتى يرجع معناه إليها ، أو وكلنا الأمر فيه إلى الله وقلنا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

ألدين دين الله وهو دين واحد فى الأولين والآخرين ، لا تختلف إلا صوره ومظاهره ، وأما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير : إيمان بالله وحده[1] وإخلاص له فى العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم لبعض فى الخير ، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا وهذا لا ينافى الارتقاء فى الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية ، ونعتقد أن دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول ، ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم إلى الاتفاق والإخاء والمواد والائتلاف ، وهذا ما عمل عليه المسلمون قرناً بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالاسلام .

فإذا سأل سائل : إذا كان ذلك الذى قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوربيين أنفسهم فى منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده فى معاداته ، فما هذا الانقلاب الذى حصل فى أوربا وماهذا التسامح الذى

(١) أى بربوبيته وألوهيته وحده ، أى لارب غيره ، يدبر أمور الخلق ويشرع لهم الدين ولا إله غيره يستحق العبادة .

يتمتع به العلم اليوم فى أقطارها ؟ فجوابه فى الكلام على الأمر الرابع مما ذكرت «الجامعة » وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الإسلامى ، وما يليق أن يكون له مع العلم وما انجرّ إليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها فى أخريات الأيام، وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى

القسم الثانى فى الإسلام

طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله

تمهيد للأصل الأول

للإسلام فى الحقيقة دعوتان — دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ .

فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر فى الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً ، واجب الوجود عالما حكيما قادراً ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان . وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه إلى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه ، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به

الأرض بعد موتها، وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر، مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته — كل ذلك من آيات الله — عليه أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته.

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث في عوامله، فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلق السموات والأرض كما جاء في آية (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) ونحوها من الآيات، وهو إطلاق لعنان العقل ليجرى شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان، وقد يزيد التنبيه تأثيراً فى إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة، كما جاء فى خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليه السلام «كان فى عماء تحته هواء [1]». والعماء عندهم السحاب. فترى القرآن فى مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب، ولا يقف به عند باب، ولا يطالبه فيه بحساب. فليقرأ القارىء القرآن يغنى عن سرد الآيات الداعية إلى النظر فى آيات الكون — (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق

---

(١) رواه ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ فى العظمة عن أبي رزين السائل. والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق ما يقوله علماء الكون فى أصل مادة العالم التى يسميها بعضهم السديم. وفى معنى الحديث قوله تعالى فى التكوين (ثم استوى إلى السماء وهى دخان).

الله من شيء ؟) . (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) — (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه فى مقالى هذا .

يذكر القرآن إجمالا من آثار الله فى الأكوان ، تحريكا للعبرة ، وتذكيراً بالنعمه ، وحفزاً للفكرة ، لا تقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا إلزاماً باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون)

فالإسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى (وهو مانسميه بالنظام الطبيعى) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ، وقد اتفق المسلمون — إلا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم — على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لايمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله ، فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من

كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة [1] فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله، وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً ويرسل رسولا.

وقالوا كذلك : إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل، وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة.

وأما الدعوة الثانية فهى التى يحتج فيها الإسلام بخارق العادة، وما أدراك ماهو خارق العادة الذى يعتمد عليه الإسلام، فى دعوته إلى التصديق برسالة النبي عليه السلام؟ هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره، ولم ينقطع أثره، هذا هو الدليل وحده وما عداه مماورد فى الأخبار سواء صح سندها أو اشتهر أوضعف أو وهى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فاذا أورد فى مقام الاستدلال

---

(١) أى لا يؤخذ منها بالتسليم ابتداء ويجعل حجة على الخصم بناء على إنه من الله، ولا ينافى هذا أنه يؤخذ منها باعتبار ما يقيمون من البرهان على ذلك، لا بمجرد التسليم ولا باعتبار أنهم رسل الله، ثم بعد الإيمان بالله وبهم يكمل إيمان المؤمن بالأخذ عنهم، وهذا الكلام ساقه الأستاذ الامام فى مقام دعوة الاسلام وطريقة الاقناع به؛ لا فى تقرير عقائده لأهله فى تربية أولادهم وتعليمهم — فهذا يؤخذ من القرآن والسنة مباشرة؛ ثم يوضح بالأدلة العقلية والعلمية ولا سيما المأثورة . والجرى فيه على أسلوب حاجة المنكرين فى الدعوة إليه مضر بتلاميذ المدارس والعوام .

فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده ، والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ، هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال ، مقوماً للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه [1] وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على مالم يرتق اليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثـــله فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف ، وسفك الدماء واضطهاد الموقنين به إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل ، وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها فى أجوائها .

---

(١) هذا أقوى وجوه الأعجاز المعنوى فى القرآن وهو اشتماله على العلم والعرفان والهداية الكافلة بحقيقتها وتأثيرها لصلاح الأمم الفاسدة العقائد والأخلاق والأعمال ؛ بعد إنقاذها من الضلال ؛ وذكر بعده إعجازه اللفظى ؛ وفيه معجزات أخرى بيناها فى تفسير آية التحدى من سورة البقرة المذكورة فى الصفحة التالية فتراجع فى الجزء الأول من تفسير المنار (صفحة ١٩٠ـ٢٢٩) .

وهذا الخارق قد دعى الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى اليه قوتهم ، فإن وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم أن يأتوا به قال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وقال (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة ، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينتقص ، فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها ، أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنه العقل ويجمد لديه الفهم ، وإنما يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم يضىء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات (١) .

---

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام فى الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية .

ثم إن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على أن الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئاً من سنة الله فى الخليقة ، ولا حاجة إلى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف.

الأصل الأول للإسلام

النظر العقلي لتحصيل الإيمان (١)

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى . والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه ؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج . فأى سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟

---

(١) هذا الأصل وما بعده ضد الأصل الرابع من أصول النصرانية راجع ص٢٦ .

الأصل الثانى للإسلام

(تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)

أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره : إتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل [١] أخذ بما دل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان ، طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة [٢] حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل .

وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى

(١) يعنى إذا تعارض الدليل العقلى القطعى مع ظاهر النقل غير القطعى الرواية والدلالة ـ كما صرح به فى العنوان ـ يؤخذ بالدليل العقلى القطعى الخ وخرج بالقطعى النظريات العقلية غير القطعية كأكثر نظريات الفلاسفة والمتكلمين فهذه لا تقدم على ظاهر النقل الصحيح وإن لم يكن قطعى الدلالة (فان قيل) وما تقولون فى تعارض الدليلين القطعيين من العقل والشرع ؟ وأيهما تقدمون قلنا كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : إن القطعيين لا يتعارضان وان صحيح المنقول فى الإسلام موافق دائماً لصريح المعقول ؛ ففرض التعارض بينهما باطل .

(٢) خرج بهذا القيد تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية وأمثالهم والتأويل طريق الخلف ؛ والتفويض طريق السيف ؛ ولكن لا كما قال الأستاذ بل مذهبهم أمرار النصوص على ظاهرها بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ؛ فنقول استوى على العرش لا كاستوائنا كما أن علمه ليس كعلمنا وكذا قدرته .....

ﷺ مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ إن لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها .

الأصل الثالث للاسلام

(من أصول الأحكام فى الإسلام : البعد عن التكفير)

هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين، وعرف من قواعد أحكام دينهم ، وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار .

الأصل الرابع فى الإسلام

(الاعتبار فى سنن الله فى الخلق [1])

يتبع ذلك الأصل الأول فى الاعتبار ـ وهو أن لا يعول بعد الأنبياء فى الدعوة إلى الحق على غير الدليل، وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات ـ أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام ، وإصلاح أعمالها فى معاشها ومعادها ـ ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر ، وفى آثار سيرهم فيهم ، فمما جاء فى الكتاب العزيز مقرراً لهذا الأصل (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ــ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا ــ فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ــ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الخ .

فى هذا يصرح الكتاب أن لله فى الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل ، والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهى لا تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات ؟ ألذى ينادى به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير

(١) هذا الأصل ضد الأصل الأول للنصرانية « راجع ص ٢٥ » .

ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الإجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه ، فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الإسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها ، فى أى لباس وجدت ، وفى أى صورة ظهرت ، وتحت أى إسم عرفت ، ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الأقربين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ، ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك إلا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور ، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون — ركبوا الأسفار ، وأنفقوا الأعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك إلى فهم كتابهم المنزل ، فكانوا يعدون ذلك ضرباً من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم الذى ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم

ما ليس منه [١] متى حسنت النية فى تناوله . وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته إلا أهل العلم به . وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانياً كان أو عبرانياً (أو آرامياً) وكتبوا الأناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب فى العبرية إلا إنجيل متى فيما يقال . ألا ترى أن اسم الإنجيل نفسه يونانى ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم ، وتحرجاً من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم .

الأصل الخامس للاسلام

قلب السلطة الدينية [٢]

أصل من أصول الإسلام أنتقل اليه — وما أجله من أصل — قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها .

هدم الإسلام بناء تلك السلطة ، ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم ، لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه ، على أن الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً لا مهيمناً ولا مسيطراً ، قال الله تعالى : (فذكر إنما أنت مذكر ﴿ لست عليهم بمسيطر) ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء . بل الإيمان

---

(١) أى قد يعد الاسلام من الدين الذى يتقرب به إلى الله — الاشتغال بعلم غير دينى بنية صالحة كنفع الناس به .

(٢) هذا الأصل ضد الأصل الثاني من أصول النصرانية راجع صحيفة ٢٦ .

يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده، ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحده، وليس لمسلم — مهما علا كعبه فى الإسلام — على آخر — مهما انحطت منزلته فيه — إلا حق النصيحة والارشاد. قال تعالى فى وصف المفلحين: (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقال (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو إلى الخير — وهم المراقبون عليها — يردونها إلى السبيل السوى إذا انحرفت عنه، وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار والتحذير، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد، ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف [1] وإنما يجب عليه

(١) يعنى لا يجب على المسلم أن يجعل أحداً من علماء السلف أو الخلف واسطة بينه وبين الله ورسوله يتقيد برأيه واجتهاده فى فهم كتاب الله أو سنة رسوله. وأما معرفة ما كان عليه سلف الأمة فى عصر النبى (ص) فقد صرح الأستاذ بوجوبه بعد ثلاثة أسطر.

قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة فى زمان البعثةوما كان الناس عليه زمن النبي ﷺ وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحى، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار. فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به، سواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد أو فى حكم عمل من الأعمال.

فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.

السلطان فى الإسلام

لكن الإسلام دين وشرع، فقد وضع حدوداً، ورسم حقوقاً، وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله، فقد يغلب الهوى، وتتحكم الشهوة، فيغمط الحق، ويتعدى المعتدى الحد، فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق، وصون نظام الجماعة، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلا بد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة.

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة، نعم شرط فيه أن

يكون مجتهداً أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها — مما تقدم ذكره — بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معاً .

هو — على هـذا — لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرتفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الإصابة فى الحكم [1] ثم هو مطاع مادام على المحجة ، ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن منهج أقاموه عليه ، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والإعذار اليه [2] « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » [3] فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره مالم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه [4] .

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم ، ألم يأتك نبأ الإمام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف أنزل الإمام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند إلقاء الدرس ، لأنه فى رتبة المستفيد .

(٢) من شواهد ذلك : قول الخليفة الأول رضى الله عنه فى خطبته « وإن زغت فقوموني » راجع ص ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع .

(٣) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما راجع ص ٣٢ من مجلد المنار الرابع .

(٤) مثال ذلك أن يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى أن يبيدها بها . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه [1] .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يختلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أى سلطان إلهى فإن ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة، بل بمقتضى الإيمان، فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه، وإن اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على مايعرفه من شرائعه ، لأن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهراهما دين وشرع ، هكذا كانت سلطة الكنيسة فى القرون الوسطى ، ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة كما سبقت الإشارة اليه .

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه ، تشرع وتنسخ ماتشاء، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطى كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع فى

---

(١) قد فصلنا هذه الأحكام ومباحثها فى (كتاب الخلافة أو الامامة العظمى) .

معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا فى معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعاً للخير الأعم عندهم [1] .

ثم هم يهمون فيما يرمون به الإسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد . ويظنون أن معنى ذلك فى رأى المسلم أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه وهو منفذها ، والإيمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلوب بالإخضاع، وفى العقول بالاقناع، وما العقل والوجدان عنده الامتاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه ، وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الإسلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض ، وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الإسلام . وعلمت أن ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها

---

(١) إن البروتستانت الذين ابتدعوا هذا الفصل اعطوا ملوكهم حق حماية الإيمان ورياسة الكنيسة كالانجليز والألمان ، ويتوجونهم تتويجاً دينياً ، وقد اعترفت ايطاليا أخيراً للبابا بدولته السياسية المدنية ومملكة الفاتيكان التى يدعيها ، والاشراف على التعليم الدينى فى مدارسها ، ولكن بدون ما كان لسلفه الأولين . فازدادت هذه الدولة بهذا التدين قسوة ووحشية فى حربها لمسلمى برقة وطرابلس من إبادة واستئصال وهتك أعراض بما أعاد الحرب الصليبية سيرتها الأولى .

الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان فى دين الإسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم. وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون الأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء . وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد .

يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو للمفتى أو شيخ الإسلام ؟ وأقول : إن الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره [1] .

الأصل السادس للإسلام

(حماية الدعوة لمنع الفتنة)

قالوا إن الدين الإسلامى دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحى ، ففى طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسالمة ،

---

(١) وظيفة القاضى معروفة وهى الفصل فى الخصومات التى ترفع إليه ، ووظيفة المفتى بيان المسائل التى يسأل عنها ، ولكل عالم أن يرد عليه إذا أخطأ . ولقب شيخ الاسلام كان يطلقه العلماء على بعض المتازين فى العلوم ، وأطلقته الدولة العثمانية على مفتيها الرسمى وجعلت له حق اختيار قضاة الشرع والمفتين بمقتضى قانون .

وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الآخر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » (متى ٥ : ٣٩ و ٤٠) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو وهى مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق ، وانما الاختيارى العدل بين الأعداء والأولياء . لكن فى ملكوت الله كل شىء مستطاع ولا شىء فيه بمستحيل .

قلنا لكن أنظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه ، وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الإسلامى ،أوهو فى طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه ؟ ليس القتل فى طبيعة الإسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة : (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين) ولكن القتال فيه لرد إعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الإسلامية ما تسمعه فى الحروب المسيحية ، عند ما اقتدر أصحاب المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال [1] .

---

(١) حدث فى الحرب الأوربية الكبرى بعد وفاة الكاتب رحمه الله من مثل هذا ما لم يسبق له نظير فى شدته ، وجاءت الأخبار فى أثناء هذه الطبعة للكتاب أن جيش ايطاليا الذى يقاتل العرب فى بلاد السنوسيين من المغرب يقترف من هـذه الفظائع ما تقشعر منه الجلود ، ومنه أنهم يحملون العرب فى الطيارات إلى بعد شاسع ويلقونهم منها على الأرض . . . دع ما يفعلون بالنساء . . .

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة ديناً عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين ،وغاية ما يقال: إن العناية الإلهية منحت الإسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعةأعدائه مالم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل ، فتيسر له فى شبيبته مالم يتيسر لغيره إلا فى كهولته أو شيخوخته .

مقابلة بين الإسلام الحربى

والمسيحية السلمية

الإسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة خلفاء المسلمين ، كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ، وكل من لم يعن

على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا »[١] و « من آذى ذمياً فليس منا »[٢] واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عند ما بدأ الضعف فى الإسلام ، ـ وضيق الصدر من طبع الضعيف ـ فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً .

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقى

---

(١) هذه هى القاعدة التى جرى عليها العمل فى الإسلام .

(٢) ورد بهذا المعنى أحاديث فى الصحاح والسنن . وإيذاء الذمى والمعاهد محرم بالإجماع ؛ وروى الخطيب من حديث ابن مسعود « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه ، خصمته يوم القيامة » وفى إسناده علة .

سلاماً بل سيفاً ، ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه [1]
والإسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين : (وإن جاهداك
على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا
معروفا واتبع سبيل من أناب إلى) فهو فى اشتداده على المهددين
لأمته لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر
الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا
مع محافظتهم على دينهم .

---

(١) هذا نص انجيل متى فى هـــذا . ومثله قول انجيل لوقا ١٤ ـــ ٢٥و٢٦
(وقال لهم (يسوع) إن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده
وإخوته وإخوانه حتى نفسه أيضاً فلا يقدرأن يكون لى تلميذاً) وفى الباب ١٩ من
هذا الإنجيل ما نصه (٢٧ أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم
إلى هنا واذبحوهم قدامى) وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك فى القسوة على
الأهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين . قال فى ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع
(وإذا غواك سراً أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك
الذى مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة
الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه
ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله . الخ) .
وفى سفر التثنية أيضاً (٢٠ : ١٠ ـــ ١٦) ما نصه (حين تقرب من مدينة
لتحاربها ادعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود
فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ،
وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميـــع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء
والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك
الذى أعطاك الرب إلهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التى ليست من
هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق
منهم نسمة ما) .

فأنت ترى الإسلام من جهة يكتفي من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا في هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته أن يكل أمر الناس في سرائرهم إلى ربهم ، وفي طبيعته أن يجيز من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وإن كان في عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة .

أفترى أنه يصحب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض أو ارتقى إلى السماء ، فهو في أمن من أن يعرض الإسلام له في شيء من عمله ، إلا أن يحدث شغباً أو يفسد أدباً ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح الفاسد بسماح من الدين .

الأصل السابع للاسلام

مودة المخالفين فى العقيدة (١)

المصاهرة :

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها وهى منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته فى العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى (ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهى كما هى - وهو يسكن إليها كما تسكن إليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة

---

(١) هذا الأصل الإسلامى هو ضد الأصل السادس للنصرانية (راجع ٢٨) .

البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم ، وذوى القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ [1] ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب ، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل وينصح للغاوى ، ويرشد الضال . لا يكفر فى ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء .

---

(١) يقول بعض النصارى إذا كان الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف مع التباين فى العقيدة والتخالف . فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم أقوى منهن ، فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوى يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وبغض أولاده ووالده إذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة له وإنما أباح الاسلام ذلك لمن يدين الله بما أمر به من العدل والرحمة ، وتنفذ شريعته عليه ما فرضته عليه من حقوق الزوجة ، وهو المسلم . زد على ذلك أن الكتابي لا يبيح له دينه التزوج بالمسلمة إلا جحوداً لدينه يخرج به عن كونه كتابياً ، أو فسوقا عنه وإيثاراً لشهوته عليه .

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها؟ أفينقص ذلك من مودته لها؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها؟ فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته. أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم، أو قاعدة لصناعة؟ إن كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد، أو يميل إلى رأى غير الذى يجد؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف؟

لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الإسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لأطلت على القارىء أكثر مما أطلت. ولهذا أرى من الواجب على أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره.

الأصل الثامن للإسلام

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة[1]

الصحة:

الحياة فى الإسلام مقدمة على الدين. أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه، وتملأ قلبه من رهبه؛ وتفعم أمله من

(١) هذا الأصل ضد الأصل الثالث للنصرانية (راجع ص ٢٤).

رغبه ، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين ﷺ لم يقل « بع ما تملك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » [١] .

الرخص :

فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلى مشقة فيه يسقط ، ويصلى قاعداً .

---

(١) بشير إلى حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، وقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة : كان سعد مريضاً فى حجة الوداع ، فعاده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثى ماله وفى رواية بماله كله ، فسأله النبيُ عما ترك لولده فقال هم أغنياء وفى رواية الجماعة : أنه لم يكن له إلا بنت ، وفى رواية احمد والنسائي ، أنه أمره أولا بأن يتصدق بالعشر ، والحاصل أنه مازال يراجعه حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة بالنص .

السعى إلى الجمعة واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط. وهكذا تجد القاعدة قد عمت «صحة الأبدان، مقدمة على صحة الأديان» فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح.

الزينة والطيبات:

أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية، والمحافظة على صفات الرجولية، جاء فى الكتاب العزيز (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) (سورة الأعراف)

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره، كما قال (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق

الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) ثم قال (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) سورة النحل

الاقتصاد :

ووضع قانوناً للإنفاق وحفظ المال فى قوله (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) سورة الإسراء

النهى عن الغلو فى الدين

وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا إذ قال (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين) سورة القصص

فترى أن الإسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذى جمع للانسان أجزاء حقيقته واعتبره حيواناً ناطقاً لا جسمانياً صرفاً ولا ملكوتياً بحتاً ، جعله من أهل الدنيا ، كما هو من أهل الآخرة ، واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه

إلى أن يطلب مقامه الروحانى . أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) قد أطلق القيد عن قواه ، ليصل من رفه الحياة (مع القصد) إلى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً ، أو تجده لذيذاً ، أو تظنه نافعاً .

وليس فى الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى إلى غاية لا مطمع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف

نتيجة

جمع الإسلام بين مصالح الدين والدنيا

فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيها ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع [1] لا تخشى العثره بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد [2] فتطلب منافعها من هذا الكون الذى

---

(١) هو الحازم القوى العزيمة يزمع على الأمر فيمضى فيه ولا ينثنى والجيد الرأى الرأى المقدام (٢) الرعديد الجبان الكثير الارتعاد .

وجدت فيه ووجد لها ، فتسير فى مناكب الأرض ولا تكتفى عن الكل بالبعض ، وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها عن مد يدها إلى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهواء ، والبحث فى الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعد معرفة مواقعها وحركاتها فى مداراتها ، واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر ، أو الولوج فى باب من أبواب العلم . ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده، إما للنجاة من ضرورة ، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة لا يجد من نواهى الدين ما يصده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة ، أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص إلا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق تحول بينه وبين ملكوت السموات ؟

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من مظاهره إلى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله إذا توانى فى ذلك ، وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ، أنظر إلى لطف الإشارة فى الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فأهل العلم هم الذين

يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويحلى به زينتهم

المسلمون مسوقون بنابل[١] من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم - فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأى لسان فإذا لا قاهم العالم فى أى سبيل ، أو عثروا به فى أى جيل ، أو ظهر لهم من أى قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا[٢] وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته ، إذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »[٣] ألم يأتهم عن ربهم : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) ألم يسمعوا فى وصفهم قوله : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)

ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلماً حقاً ، وذلك ما تنجر اليه

---

(١) يقال فى اللغة « رجل نابل » منه نبل : ولعل المراد به أن المسلمين مسوقون من دينهم كما يساق المقاتل بالنبل . الغرابي

(٢) لعل نصبوا من نصب السير وهو أن يسير طول يومه سيراً ليناً . وكمش الرجل كان سريعاً ماضياً ، وكمش كماشة شجع وأسرع .

(٣) حديث رواه الترمذى عن أبي هريرة ، ورواه غيره بألفاظ أخرى والمعنى واحد ، ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضى الله عنهما « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » وفى رواية عن على كرم الله وجهه « الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق » .

طبيعة دينه ، وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين (١) » إن كان فى سند لفظه إلى النبى ﷺ مقال فسند معناه متواتر فإنه سند القرآن نفسه ، فإن الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى ﷺ

لا شىء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وإن كان فى أول أمره مطلوباً لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك إليه فى تقويم معيشة ، أو ترفيه حال، أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ؛ وعلة ذلك ظاهرة ، فإن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست فى حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الإنسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شىء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول ، واحراز المعقول ، وقد سمح الإسلام للسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى شعب الإيمان والمدخل وابن عبد البر فى العلم والخطيب فى الرحلة والديلمى فى مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا .

والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله ، كما يسيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ، ويقيت أهله ؟ على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا ، فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلى سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه فى رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال إمام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله »

نتائج هذه الأصول

وآثارها فى المسلمين

إلام أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها فى أسلافهم الأولين ؟ — فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى بست سنوات فى رواية ، وتسع سنوات فى رواية أخرى ، والإسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره ، فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان فى بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته ، وكان يميل إلى العلم بطبيعته ، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكرتهم ، ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن

أربعين سنة فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم ، وقد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته .

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين : أن عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين (إن المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى : بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع)

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم فى أعمالهم ، ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم ، حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سورية ، ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين ، فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع .

اشتغال المسلمين

بالعلوم الأدبية ثم العقلية

بعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام ، أخذ الخليفة على ابن أبى طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ، ويطلب

وضع القواعد لها ، لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وإن كانت الحروب الداخلية التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم ، فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة فى الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وإنشاء البليغ من النثر ، قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ، ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما سأل عنه دل عليه ، فذهب اليه فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله فإذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية ، مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش ، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ، ولا يخفى مافى ذلك من ترويج فنون الإبداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها

اشتغالهم بالعلوم الكونية

فى أوائل القرن الثانى

انقضت دولة بنى أمية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنا ، ودالت الدولة لبنى العباس ، واستقرت فى نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك إلى بغداد ، فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً ، وأخذ المنصور ينشىء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه ، وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة ، فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية ، فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى ، ولا يسهل على كاتب احصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول ﷺ (١)

---

(١) يلاحظ أن أشد أولئك الخلفاء عناية بالعلوم والفنون هم اعلمهم بالدين الاسلامى وأشدهم محافظة عليه .

إنشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دولة الإسلام تعتنى بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مئة ألف مجلد منها ستة آلاف فى الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (احداهما) من الفضة يقال إن صانعها بطليموس نفسه وأنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والثانية) من البرونز ، ومكتبة الخلفاء فى اسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكان (فهرسها) أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا أنه كان فى أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه . يقال إن سلطان بخارى دعا طبيباً أندلسياً ليزوره فأجابه أن ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلها . وكان حنين بن إسحاق النسطورى فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه

إنشاؤهم المدارس للعلوم وطريقة التدريس فيها

غطى بسيط المملكة الإسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على

سعتها ، لأنها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس فى كل الأقطار : فى المغول ، فى التتار ، من جهة المشرق فى مراكش ، فى فاس ، فى أسبانيا من جهة المغرب

كانت طريقة الأساتذة فى التدريس أن كل مدرس يعد درسه ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه ما يريد أن يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ، ثم تكون هذه الدروس كتباً وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم . وهنا نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير أن مؤرخاً واحداً رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه ألا ينشر منها شيء إلا بإذن ، على أنى لا أعلم شيئاً من ذلك وقع فى الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاما .

نرجع إلى الكلام فى المدارس الاسلامية : يقول (جبون) فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب : « إن ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد فى الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتى ألف دينار على بناء

مدرسة فى بغداد وجعل لها من الريع يصرف فى شؤونها خمسة عشر ألف دينار فى السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة ، وابن أفقر الصناع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » اه

انقسمت الممالك الإسلامية فى زمن من الأزمان إلى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون فى آسيا (الشرق) والأمويون فى الأندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون فى مصر من افريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس فى العلم والأدب ، وكان مرصد سمرقند قائماً فى ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الأفلاك ، ومرصد جيرالد فى الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم فى الإدراك

جميع المدارس فى البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان فى المدارس الطبية عن مدرسة الطب فى القاهرة ، وكان من أشد النظامات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز فى الامتحان على شدته ، وأول مدرسة طبية أنشئت فى قارة أوربة على هـــذا النظام المحكم هى التى أنشأها العرب فى (ساليرن) من بلاد ايطاليا ، وأول مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى اشبيلية من بلاد اسبانيا .

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية ، فى الأحوال الاجتماعية ، وابتدءوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم فى أول الأمر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليونانى واللاتينى ، وكتبوا معاجم فى اللسانين ، وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها إلى لسانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها . وكان المعلمون لأبناء العظماء فى أول الأمر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه

علوم العرب واكتشافاتها

كان علم العرب فى أول الأمر يونانياً ، لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربياً ، ولم يرض العربى أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو إقليدس أو بطليموس زمناً طويلا ، كما بقى الأوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى .

قالوا : إن (باكون) هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية ، أو أقامها مقام الرواية عن الأساتذة والتمسك بآراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق فى أوربا وأما عند

العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات ، وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العرب هى « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الأوربى إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى « إقرأ فى الكتب وكرر ما يقول الأساتذة تكن عالماً » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المآل .

قال (ديلامبر) فى تاريخ علم الهيئة « إذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين ، أمكنك أن تعد فى العرب عدداً كبيراً غير محصور » وأما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجرباً واحداً عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب . ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية ، وهى من أصدق الأدلة فى الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف .

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام

الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض .

قد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها ، حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون فى سمرقند وبغداد وقرطبة ، حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية

لا يمكننى فى مقالى هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها ، فذلك يحتاج إلى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والإنصاف من فلاسفة الأوربيين ومؤرخيهم وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لإخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم (١) ، ولكننى أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (٢)

« تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فإن هـذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذى

---

(١) المنار : قد نشرنا جملة صالحة من ذلك فى مقالات (مدنية العرب) بالمجلد الثالث.
(٢) هو الفيلسوف درابر الأميركاني .

بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها . قال الخازنى إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : إن الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظن من هذا أنه مر فى صورة معادن أخرى فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً ، ولا يعلم أن الفلاسفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الانسان أنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب فى صور الأنواع المختلفة كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك إنساناً »

ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع إستقامة الدين »

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب فى حرية الرأى إلى نقض أصل الدين وقال : ان الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذى يبقى هى أرواح الأنواع . فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه فى بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص ، فإنه قال كما قال أرسطو وغيره : إن الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهى باقية لا تزول : وهذا باب آخر يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام فى بيان رأيه من وجه آخر [1]) كما أخطأوا فى

(١) يعنى قد سبق فى المقالة الأولى مما نشر فى المنار وقد جعلناها هنا فى آخر الكتاب .

قولهم عنه إنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فى صوره ، والكل يرجع إليه بمعنى أنه يفنى فى ذاته ، ولا يبقى فى العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فإن ابن رشد كان مسلماً وكان يعرف أن الإسلام لا ينافى العلم وإنما ينافى هـذا الضرب من الوهم ، الذى لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة فى طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى اليه كما سبق بيانه [1] ولكنى لا أنكر نسبته لو نسب إلى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فإن فى كلامه ما يدل على ذلك .

ويقول فيلسوف آخر : « إن العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر إليها ـ صارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذى أعدت له . وليس فى الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم يُنكر أن الفضل ـ فى إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر

---

(١) يعنى قد سبق ذلك فى المقالة الأولى التى رد بها الكاتب على الجامعة ونشرت فى المنار وجعلناها هنا فى آخر الكتاب .

وكيف تفكر، وفى معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم ـ إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها اليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربى والأدب المحمدى عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائباً لأن كرسيه كان انتقل إلى فرنسا فى أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم إلى شمال إيطاليا واستقر به القرار هناك . إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا فى القرن الثانى عشر وقد رصفت بالبلاط على نحو ما رصفت به مدن أسبانيا » اه .

ويقول آخر : « لا أدرى كيف أعطانا الإسلام فى مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفراده ، وإن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرناً فى أوربا ولم تمنحنا فلكياً واحداً » .

هذا النماء والذكاء العلمى لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة ، بل كان الناس فى التمكن من تناوله سواء ، وإنما كان التفاضل بالجد والعمل ، والفضل فى ذلك كله لحلم الخلفاء وأعمالهم ، وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « إن شعوب الأرض لم ترقط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحى الإسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد » .

أخذ الخلفاء والأمراء

بين العلم والعلماء

إن الخلفاء الذين يقال عنهم إنهم رؤساء دين وحكام سياسة معاً كانوا هم أنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين إلى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحياناً أعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظناً منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رأيت فى غير الإسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبداً .

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، وأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعرى ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة .

يذكر على بن يوسف القفطى أن صالح بن مرادس ـ صاحب حلب ـ خرج إلى المعرة وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب سعوا إلى أبى العلاء ابن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير ـ أطال الله بقاءه ـ كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ،

قاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح: قد وهبتها لك، ثم قال: أنشدنا شيئاً من شعرك لنرويه، فأنشده على البديهة أبياتاً فيه، فترحل صالح. فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف.

ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال، وفيما سبق كفاية لمكتف.

ازالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر، وهمس بعضهم فى آذان بعض، وتغامزهم على أهل الفضل، ولمزهم إياهم بالألقاب، بل واحتقارهم فى بعض الأحيان. وهـــذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير. وهو خطأ ظاهر لأن هذا النوع - ممن يكره أهل العلم - لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها، فإن القائمين على عقيدة الكاثوليك إلى اليوم فى أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة، ويكتبون ما يوهن قواعدها، وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه، ويرون أن النظر فى كتبهم لا يجوز فى شريعة الدين، ونحن لا نرتاب فى أن نحو هذا كان عند

المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد فى شىء ، وإنما هى نفرة الإنسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضى فى سبيله إلى حيث يشاء .

يقول آخرون : إن التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول : إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله [١] فتضطر السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع أن غيره فى غنى عما يراه هو حقاً له ، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينفى منهم المجتمع ، صوناً له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين

(١) ذكر أمام الحرمين فى كتابه (الشامل) فى أصول الدين أنه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة ، وأن ذلك هو السبب الحقيق فى قتل الحلاج .

والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ وأن لا ينشأ شيء منها إلا بإذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة [1] ولكن هل يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ، إنما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها فى أول نشأتهم .

ماذا يقول القائلون ؟ إن التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره ، يكاد يكون خفياً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الإقناع والإلزام ، وسقطت قيمة الغلو فى التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه .

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الإمام البخارى صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده ، حتى قال له يوما وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حباً فلقطوا إلا إياك ياعمرو

---

(١) أغرب من هذا أن أحد الأساتذة فى مدارس أميركا الجامعة قرر فيها نظرية داروين المعروفة فأنكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة .

بن عبيد ، فانظر كيف كان لإمام من أئمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأساً ؟

إذا عدّ عادّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الإسلام ، وقتلتهم حماقة الملوك بإغراء الفقهاء وأهل الغلو فى الدين ، فما عليه إلا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذى أثار اولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن ليست الغيرة عليه هى الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وإنما تجد الحسد هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضى قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذى نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لإيذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض ، لإهلاك بعضهم بعضاً ، كما يشهد به العيان ، ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه . وإنما ذلك الإضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة ، أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم ، أو العمل ، لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه ، وهذا لم يقع فى الإسلام ، اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا .

هـــذه طبيعة الدين الإسلامى عرضت عليك فى أهم عناصرها

ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها فى العالم الشرقى والغربى . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل فى هذا خفاء على ناظر ، وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ؟ أفلا يبسم الإسلام عجباً وهو فى أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، إن لم يحسبه فى أحبائه ، عندما يراه يسدد سهمه إليه ويجور كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ؟؟

الإسلام اليوم

أو الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام

المقال الرابع لذلك الإمام الحكيم :

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقى ، وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقوى العقول البشرية لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعاً لهم ؟ أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلا فى بلاد إسلامية غير البلاد

المصرية [1] كتب مقالا فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه فى مذهب الصوفية ، وقال إنه ليس مما انتفع به الإسلام بل قد يكون مما رزىء به أو ما يقرب من هذا ـ وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ـ فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا : إنه مرق من الدين ، أو جاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالى فقبض عليه وألقاه فى السجن ؟ فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف إلى آخر ما يقال فى الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب .

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والد السنوسى صاحب الجغبوب) كتب كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم

---

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى الشهير رحمه الله ومقالاه فى الفقه والتصوف نشرا فى المنار وطبعا على حدة وقد وشى به بعض حساده فى دمشق إلى وإلى الشام فاعتقله الوالى ، وكان السبب الحقيقى لاعتقاله مقالة له فى الخلافة نشرت فى المقطم (راجع ترجمته فى المنار ص ١٩٦ مجلد ١٩) .

الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الأزهر الشريف [١] فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وإنما الذى خلص السنوسى من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكى .

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان ، فى استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بإدخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم ، وأنه إنما يريد الغض من علوم الدين [٢] أم لم تنشر فى العام الماضى فصول بأقلام بعضهم تشير إلى مطعن فى عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به ، مع أنه لم يجهر بمنكر ، ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل الينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة

---

(١) هو الشيخ عليش الذى كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضاً طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف .

(٢) يعنى الأستاذ بهذا نفسه فهو الذى أشار بتعليم هذه العلوم .

التمسك بالقديم ، والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعاً عما كان عليه سلفهم ، وإن كان فى البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم فى حكومة المغرب من الغلو فى التعصب ، والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء فى شرب الدخان أو بالقتل فى كلمة ينكرها السامعون ، وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون .

ثم ألا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل صخباً ولجباً ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، إذا قيل أنه ينبغى لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفاً من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعى ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى ألا يبقى شىء عرف له اسم فى اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة فى زعمهم ؟

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الأمراض الوافدة إليهم ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصاً عندما يجد الوحدة فى الصفات ، والشمول فى جميع الاعتبارات ، فلو أخذت مسلماً من شاطىء الاطلانطيق ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد

كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهى (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه، وإن نطق به الكتاب، واجتمعت عليه الآثار.

اللهم إلا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التى كانت تحول بينها وبين النظر فى آيات القرآن ومتون الأحاديث ، لتفهم أحكام الله منها، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدراً من المقلدين، وإن أنكرت كثيراً من البدع، ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية السليمة أحباء [1].

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء فى فهمها؟ وإذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى فيها أحجموا عن إبداء الرأى، واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها، إلى أن تتفق مع قول معروف فى كتاب من الكتب، حتى لقد جاء طالب علم

(١) يعنى بهذه الفئة أهل الحديث. ومن يسمون الوهابية فقد كان يحمد منهم ترك البدع . والاهتداء بالسنن . وتقديم الأثر ، على آراء البشر ، وينكر عليهم ضيق العطن دون ما أرشدت اليه النصوص من علوم الأكوان ، ومقدمات المدنية والعمران، التى تعتز بها الأمة ، وتعلو كلمة الملة .

من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الإلتحاق بأحد الأروقة فى الجامع الأزهر فوقع الشك : هل بلده مما لأهله استحقاق فى ذلك الرواق على حسب نص الواقف ، فقال قائل لشيخ الرواق : إن كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شرط الواقف . فقال : إننى لا أقتنع بما فى تلك الكتب ، وإنما الذى يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذى وقف الواقف على أهله . وإذا قيل لأحدهم : إن الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحويه كل قطر وبيان الحدود التى ينتهى إليها ، وإن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات . قال : إنما أريد نصاً فقهياً ، لا دليلا عقلياً .

وإذا قيل لهم : اختلت الشؤون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الإخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك إلى البحث فى أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم فى علل ما صرتم وصار الناس إليه ؟ قالوا : ذلك ليس إلينا . ولا فرضه الله علينا . وإنما هو للحكام ينظرون فيه . ويبحثون عن وسائل تلافيه . فإن لم يفعلوا

ـ ولن يفعلوا ـ فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد فى الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وأن الإسلام لا بد أن يرفع من الأرض ، ولا تقوم القيامة إلا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع فى نفس حركة إلى عمل ؟؟

رأى رينان فى الإسلام

هذا الجمود ـ الذى لو أردنا بيان ما امتد إليه من طيات الأفكار وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتاباً ـ هو الذى حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسى المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على أننى أخشى أن يثبت الدين الإسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ، ولكنى أعرف أن فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الإسلامى القديمة ، وفى بضعة من رجال الأستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال إلى المسامحة ، إلا أننى أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء ، فإذا اختنقت قضى على الدين الإسلامى . ذلك أنه من الثابت الآن أمران : الأول أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة ، لأنها لا تصلح أن تكون وسيلة إليه . والثانى أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة فى سبيله . فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين ، وإلا كان موتها ضربة لازب » إنتهى كلام رينان بتصرف لفظى قليل .

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذى سمح للطاعنين أن يحكموا على الإسلام ، بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحاً فى سعيهم ، أو نجاحاً فى أعمالهم ، من أين يكون هــــذا الجمود إن لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ فإن لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وأن الإضطهاد من لوازم الدين الإسلامى ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه . أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه . وأحد هذه الأمور كاف إذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رنان وغيره فما قولك فى هذا ؟؟

الجواب

أقول هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين إلى غير الدين ـ إلى آخر ما يكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) .

فإن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم

فإنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالى من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس.

يدلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لا تقل إن هذه السياسة من الدين ، فإنى أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم (طلعها كأنه رؤوس الشياطين ۞ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ۞ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ۞ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ۞ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ۞ فهم على آثارهم يهرعون)

جمود المسلمين وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام وقد رأيت صورة الإسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع إليه شىء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وإنما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام فى أفئدتهم ، وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام

من عقولهم ، هو السياسة كذلك ، هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين ـ هو السياسة .

لم أر كالإسلام ديناً حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطاناً تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفى على الغافلين قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة [1] من الآخرين ، لاهم فهموه فأقاموه ولاهم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته وهم ليسوا منه فى شىء إلا كما يكون الجهل من العلم . والطيش من الحلم ، وأفن الرأى من صحة الحكم .

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سبباً فيما صار إليه أهله : كان الإسلام ديناً عربياً ، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً ، بعد أن كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيراً له . ظن أن الجيش العربى قد يكون عوناً لخليفة علوى ، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى ﷺ . فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه

(١) الخشارة بالمعجمتين كالخثالة وزنا ومعنى : الردىء ومالا خير فيه من كل شىء ، من خشارة الشعير وهى مالا لب له وخشارة التمر وهى رديئه والشيص منه ، وحثالة الطعام ما سقط منه إذا نقى .

يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانة من الملك ، وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً .

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه [1] أكثر من ذلك الجند الأجنبي وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شىء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الإسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره .

أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ، فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يندرجوا فى سلك العلماء، وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ، ويبعد

(١) هو المعتصم بئسما صنع فى نصر البدعة على السنة ، وبئسما صنع فى تمكين الترك من سلب ملك الأمة .

بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم ـ وهم أغرار ـ من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصاً ليكملوه ، أو مريضاً ليعللوه ، أو متداعياً ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه .

نظروا إلى ما كانوا عليه من خفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هـــذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة وقرروا أن المتأخر ، ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم فى الشؤون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا

فى ظواهر الألفـــاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم ، وغلا للأيدى عن العمل . والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة ، وضعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى . أمور إذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

هذه السياسة ـ سياسة الظلمة وأهل الأثرة ـ هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به إلى اليأس يجاور به العجماوات ، فجل ما تراه الآن مما تسميه إسلاماً فهو ليس بإسلام ، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذى ذكرته وعدوه ديناً ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام ، وإنما هو شىء آخر سموه إسلاماً ، والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون ، وأنهم عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفى لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود ، ونثبت أنه علة لا بد أن تزول

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هـذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها ، وإنما يحسن إجمال القول فيها .

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الأرض ، ويصعد به إلى أطباق السماء ، ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سراً من أسراره فى خليقته ، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته ، فـكانت جميع الفنون مسارح للعقول ، تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولـكنه سار سير التدريج .

جناية الجمود على اللغة :

أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابهـا فإن القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم إليها – أريد حاجتهم فى فهم كتابهم – إلى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير إليه هيئة تراكيبها ، وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملـكاتهم ، يساوون من كانوا عرباً بسلائقهم . فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بمـا قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا

بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا إلى دليله ؛ ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه ، بأن كان قد عرض له في فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا إلى غير ما ذهب إليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأي حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها ؟ وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون في كلامهم .

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الأول ، بل ولا بما كان يحف بالقول من أحول الزمان ، فهو لا ينظر إلا إلى اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس إلى مانراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة وإن لم يصلوا منها إلى غاية في فهم ما وراءها ، فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم ، بل فقدت كتب السلف الأولين رضى الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الأم للشافعي رحمه الله تعالى أو بعض كتب الأمهات في فقه الحنفية كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءاً من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر ، فإذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الإعتبار بما ورد فى الأخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع [١] وأن هذه الأمة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره [٢] وقلة الالتفات إلى ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك أنه إذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول ، وأى ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع :

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين . كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع إلى اختلاف أفهام الأفراد ، وكل يرجع إلى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ،

---

(١) يشير إلى حديث ابن مسعود عند الترمذى وابن ماجه وهو : سمعت رسول الله (ص) يقول « نضر الله أمرءاً سمع منى شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع» ورواه غيرهما عن غيره .

(٢) يشير إلى حديث أنس عند الترمذى وهو ، قال رسول الله (ص) « مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » ورواه غيره .

ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لأسرع إلى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه إلى مذهب إمام آخر ، وإذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له في الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم في شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون إليه . يضلل بعضهم بعضاً ، ويرمي بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن . ولكنه الجمود ، قد يؤدي إلى الجحود .

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأي ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه ، مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخالفون في التنطع وأخذت الصلات تتقطع ، وامتازت فرق ، وتألفت شيع ، كل ذلك على خلاف ما يدعو إليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزاً حقيقياً فما استطاعوا وإنما هو تمييز وهمي ، وخلف في أكثر المسائل لفظي . وإنما هي الشهوات وضروب السياسات . أشعلت

نيران الحرب بين المنتسبين إلى تلك الشيع حتى آل الأمر إلى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها.

قال قائل [١] من عدة سنين : إنه ينبغى أن يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال : إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيراً على الناس ، ودفعاً للضرورة والفساد . فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئاً ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب إلا الدين ، ولم يأت إلا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم إلى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع إلى ما وراءه . أو هى السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون إليها بأزمة القوة أو الأهواء .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها :

هذا الجمود فى أحكام الشريعة جر إلى عسر حمل الناس على

---

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمى فى تقريره الذى وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية وبينا مكانته وأدلته فى مقدمة ذلك التقرير .

إهمالنا : كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً سمجة تسع العالم بأسره ، وهي اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها،وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقي إليها ، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها .

• صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلا لا يعد شيئاً إذا نسب إلى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ، فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم ، بل سقط احترامها من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها . وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

سألت يوماً أحد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد فى كتب مذهبك ؟ فأجاب: إن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وإنما يفعل ما يفعل الناس هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيي بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء .

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة ، لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية

أو المدينة فى جاهلية جهلاء ، يرجع بعض أهلها إلى بعض فى معرفة الحلال والحرام ، وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون . وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو إذا سئل يقرأ كتاباً أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها . وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فإذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعل بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لأصله انطباقاً على هذه الحادثة مثلا وإن لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه ، قال : سبحان الله : هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد أن لا يأتى شيئاً إلا أتى به شيخه الذى أخذ عنه يداً بيد ، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه [1] ثم إذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقاً ، وأنك تدعوه إلى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى .

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال ، خصوصاً عند إلقاء

---

(١) تراهم يقولون فى الكلام على آية أو حديث إنه حجة على أصحابنا ، وتجد مثل هذا فى مواضع من شرح النووى على صحيح مسلم وهو الذى لقبه الشافعية بالشافعى الثانى .

الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لى . إنه لا فائدة فى ذلك قطعاً ، وهو تعب فى غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغواً :

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ، ولم ينظر فى الوسيلة إلى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه إلى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلا لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئاً من الأوامر الإلهية التى وردت فى النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر ، وأن اليأس من روح الله إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا ، بل إذا قلت له : إن هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه أو أن هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه . . كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعاً من الإخلال بالدين . وقد يقيم عليك حرباً يعتقد نفسه فيها مجاهداً فى سبيل الله .

إذا قلت له : إن دروس السلف كانت تقريراً للمسائل وإملاء

للحقائق على الطلاب ، ولو لم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدى الطلبة إلا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم . قد يعترف لك بصحة ما تقول ولـكنه يستمر فى عمله ، اعتماداً على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى إدراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة :

ذلك جمودهم فى العمل ، وأشد ضرراً منه الجمود فى العقيدة : — نسوا ما جاء فى الـكتاب وأيدته السنة من أن الإيمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن ، وأن العقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة ، وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك [1] من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وأن العقل إن لم يستقل وحده فى إدراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الإعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول ـ نسوا ذلك كله وقالوا : لا بد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة ، وافترقوا فرقاً وتمزقوا شيعاً كما قلنا ولم يكفهم

---

(١) يعنى أن الأخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل — وفاقا لنظر العقل — على التصديق بأن الله أرسلهم، فهو لا يكون إلا بعده . وهذا قطعى بالنسبة إلى من يدعى إلى الدين من الـكفار وإلى إقامة الحجة على المنـكر ، وأما الناشىء فى الإسلام فلا ترتيب عنده فى ذلك فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وأدلتها العقلية من القرآن مباشرة .

الإلزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم إلى أنه لا بد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد فيكون التقليد فى الدليل كالتقليد فى المدلول ، وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد وياليته النقل عن المعصوم ، بل النقل ولو عن غير المعروف ، فتقررت لديهم قاعدة : إن عقيدة كذا صحيحة ، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين إلى أمييهم فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وإن لم يكن فى حق الأمر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم .

أنجر التساهل فى الاعتماد على النقل إلى الخروج عما اختطه لنا السلف رضى الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى

معرفة حاله ، وإهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم إلى عناء طويل وجهاد شديد وسلاحه الكتاب ، وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف ـ وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غداً إن شاء الله .

سأل سائل من الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة ـ ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته ـ فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : إن العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل : إن الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا . وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ، ووكلت إلى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغرس ، ولا تجنى الأمم منه إلا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه ﷺ المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة [1] يصيح فى وجهه (ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين)

---

(١) من نعرت الدابة تنعر به بضم العين نعيرا صوتت .

ويريد من آبائه الأولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه .

ماذا يمكن أن أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين وإذا دعى إلى ترك المنكر نفر وزجر وأبى واستكبر . أنظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم فى الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله بما يفعلون .

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين ديناً ، ويصعب على حفاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل .

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدى منذريه . ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شىء على حملة الشريعة ، وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم إن الجمود قد أحدث لنا فريقاً آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة، إما فى مدارس الحكومات الإسلامية، وإما فى المدارس الأجنبية داخل بلادهم أو خارجاً عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق فى

بلاد القرم أو القوقاس أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فإنى لا أعرف كثيراً من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً وأرجو أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الإسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفراداً قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقاً ، وهم أشد تمسكا بلب الدين الإسلامى وروحه من كثير ممن يدعى الورع والتقوى ، ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم .

وإنما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الإسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل فى مدارس لم تبن إلا لترويج دين غير الدين الإسلامى وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وأن لا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة .

جمود تلاميذ المدارس الأجنبية :

هؤلاء التلاميذ إن كانوا فى مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الإسلامى فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر ، فقد يسرى إلى عقائدهم شىء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد

أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مراراً ، ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لأولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من ينقطع ، لتعلمها ، فضلا عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها ليتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ، ولكن الجمود صير كل شيء صعباً وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعاً آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم أو كما يروجه بعض من لا يريد الخير بها ، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم إلا زاجراً عن خير أو دافعاً إلى شر ، فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم شهوتهم ، فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الأغنياء الذين تصبح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الإسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم .

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية :

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الدينى فيها

شىء من البقية فهؤلاء ينشأون على شىء من المعارف فى الفنون المختلفة، وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الأرضى أو فى الاجتماع الإنسانى ، ومن عرف شيئاً انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها ، فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفاً للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : إرجع إلى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك ، حار لا يدرى إلى أى كتاب يرجع ، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشتيت وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود إلى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه .

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شىء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانباً ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آداباً فى غيره ، وقلما يجدونها ، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ، ويسلكون إلى ذلك أى طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « ما دام الشرف محفوظاً » فإذا وجد بينهم من يدعى الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فإنما ينثر الألفاظ نثراً لا يرجع فيها إلى أصل ثابت ، ولا إلى علم صحيح . ولهذا يطلب

المصلحة لبلاده من الوجه الذى يؤدى إلى المفسدة ، وهو يشعر ـ أو لا يشعر ـ على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه ،أو درس عقيدة من عقائده فشأنهم كلام فى كلام ،ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن إليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مأدوماً بالدين . وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة ، يرجع إليها فى سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

الجمود علة تزول

المقال الخاص لذلك الإمام الحكيم وفيه بيان علاج الداء :

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفى بما أوجزناه فى الصفحات السابقة . ولكن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله إن شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الإسلامى ـ بعد عرضها عليك فيما سبق ـ أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث ـ مرض الجمود على الموجود ـ وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون إستعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة إلى إعادة ذلك .

ثم إننا أشرنا أيضاً إلى بعض الأسباب التى جلبت هذا الجمود على

المسلمين لا على الإسلام ، وان محدثها إما عدو المسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه وإما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شراً . وهـذا الثانى كان أشد نـكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الإسلام إلى سعته الأولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله إلى ما ذخر لهم فيه ؟ ؟

جاء فى الـكتاب المبين (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ذلك الذكر هو الذكر الحـكيم ـ هو القرآن الذى (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هو كما قال (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الـكتاب وقد أنجز وعده ، لم تصل إليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقى كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهراً نقياً بريئاً من الاختلاف والاضطراب ، وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات ، ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدى أنصاره . فيتبلج ضياؤه لأعين أوليائه . إن شاء الله تعالى .

هـذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به إليه ويحمدون سراهم ،

بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل ، هؤلاء فى عمى عن نوره ، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الإيمان به ، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون .

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ، ويجلبون العار على الإسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه فى حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه فى شيء كما قدمنا .

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه [1] ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، ولن يخلص مما قضى الله فى عذابهم . فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهرياً — أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر

---

(١) فى الكلام أشارة إلى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما .

المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا — وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم — ويفزعوا إلى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ، ويسير بهم إلى منابع العلم فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين .

ولهذا أقول : إن الإسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبداً ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ، ويدعون إليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم .

هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع إلى موطنه الأول فى قلوب المسلمين ويأوى إليها ، العلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس إلا إليه ، ولا يعتمد إلا عليه .

يقول أولئك الجامدون الخامدون - كما يقول بعض أعداء القرآن :
إن الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت أن تقوم ، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما منى به الدين من الكساد ، وما عرض عليه من العلل ، وما نراه فيه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة فى السعى ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة إلا إلى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا إلا إلى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) .

هؤلاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهرفون بما لا يعرفون .. ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ إن الذى مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام (أى الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرون عاماً ، وإنما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى ، وإن آيات الله فى الكون - وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير - تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلا بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام ؟ إن زمناً كهذا لا يكفى - وقد تبين أنه لم يكف - لاهتداء الناس كافة بهديه . ولِمَ تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم ؟

وقد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ، ثم انحرف به أهله عن سبيله وساروا به إلى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معاً على تقويم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ، ويعرف حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعاً ، وقفل راجعاً ، وأخذ إخذ الراسخين في العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع [1] قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت [2] القلوب إليه لتجرى في كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى

---

(١) المنقطع ما ينقطع عنده الشيء وهو آخره .
(٢) تولهت اشتد عشقها .

تجوب مهاوى سدف (١) الغيوب متخلصة إليه سبحانه فرجعت. إذ جبهت (٢) معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته »(٣) .

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته ، متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً ، إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقاً بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة ، فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى (الوجدان أو القلب) من مبادىء البرهان العقلى ، كوجدانك أنك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر فى الغايات ، والأسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات ، والوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس وإذعان ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر

---

(١) السدف : جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى .

(٢) جبهه : ضرب جبهته ورده .

(٣) هذا الكلام فيه من الصنعة وسمات التوليد ما يدل على انه موضوع على على كرم الله وجهه .

بهما ، عين تقع على القريب : وأخرى تمتد إلى البعيد ، وهى فى حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى ، فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان وإذعان ، فكر ووجدان . فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى ، ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين ، والوجود الفرد وجودين :

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك ، وربما أيقنت المنفعة فى أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك ، فتقول إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكنى أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره ، عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين — إما أن يقينك ليس بيقين ، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فأنت تظنها علما وما هى به ، وإما أن وجدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت فى مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة وما هى منه فى شىء .

لا بد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي

صح معناه (١) « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله »، وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون (٢) وتبعهم الجامدون القانطون، وليس بينك وبين ما أعدك به إلا الزمان الذى لابد منه فى تنبيه الغافل، وتعليم الجاهل، وتوضيح المنهج، وتقويم الأعوج، وهو ماتقتضيه السنة الإلهية فى التدريج (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وهو خير الناصرين.

---

(١) قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : رواه أبو نعيم فى الحلية مرفوعابإسناد ضعيف . ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث بن عمر ، وقال : هذا إسنادفيهنظر. قلت فيه الوازع بن نافع متروك . وقال الزبيدى فى شرح الإحياء : قلت حديثابنعمر وقال : هذا إسناد فيه نظر . قلت فيه الوازع بن نافع متروك . وقال الزبيدى فى شرح الإحياء : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر وأبو الشيخ فى العظمةوالطبرانى فى الأوسط وابنعدى وابنمردويهوالبيهقىوضعفه ، والاصفهانى ، وأبو نصرفىالإبانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعى منحديث أبيهريرة « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » الخ . وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد الحسنة .

(٢) الكافر من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه أو ينظره فيعرف الحق ثم يمارى فيه وينكره عناداً : اهـ من هامش الأصل .

حديث العلم فى أوروبا الآن

(ونسبتها إلى الماضى والحاضر فى الإسلام) وهو المقال السادس لذلك الإمام الحكيم

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة [1] وهو « أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوروبا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الإسلامى دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة »

ليس من السهل على أن أعتقد أن أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول — وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية — وإنما هى عين الرضى تناولت من حاضر الحال، ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت، ثم أملت على قلبه ما جري به قلمه.

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحاً ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ؟ أم يسمى غل الأيدى عن الشر بوسائل القهر كرماً ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك ايطاليا فى مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسى المملكة الإيطالية وكرسى المملكة البابوية - فى عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا

(١) يذكر القراء أن كلام الجامعة فى الطعن بالإسلام كان مبنياً على أربعة أمور . تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفى هذا المقال الرد على الرابع .

مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحاً من الملك مع البابا ، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكيـــة ؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التي عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين - تساهلا من العلم مع الدين ، لا تسامحاً من الدين مع العلم ، بعـدما كان بينهما من الحوادث ما كان ، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له فى أغلبها .

اقتباس مدينة أوربا من الإسلام وأسباب ظهورها العام

السبب الأول : الجمعيات

كان جـلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفـت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب ، منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى . ومنهـا ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه ، لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس ، وتبع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بهـا سطوع نور العلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا . وقد وجد

هذان النوران استعداداً من النفوس للاستضاءة بهما فى السبيل التى تؤدى بهما إلى المدنية التى كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقهامن غلورؤساء الدين فى استعمال سلطانهم ، واشتدادهم فى استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشعور الإنسانى يتلمس السبيل إلى الخلاص ، وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه . وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران . ونفيهم من الأوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة ، فى أدنى الأشياء وأعلاها ، حتى أنه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش شوارع باريس بالبلاط على الأسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة ، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع ، أغضب ذلك قسوس القديس انطوان . ونادوا بأن خنازير القديس لابد أن تمر فى الشوارع على حريتها الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع فى أعناقها أجراس . وقالوا إن الملك فيليب السمين مات بسقطه عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس فى عنقه.

لقائل أن يقول : إن القسوس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس فى أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) .

ويسهل على أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى أجراس الخنازير كان يظهر من حين إلى حين، إلا أنه فيما أظن لا يكفى فى تشييد هذه المدنية التى يفتخر بها الأوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك.

السبب الثانى الضغط الدينى

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيراً من الحقائق التى نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بما يهتدون إليه، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا، إلى أن ظهر دعاة الإصلاح الدينى (البروتستانت) فانضم دعاة العلم إليهم ظنا منهم أنهم سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم. وكان منهم (ايراسم) الشهير، فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم، فانفصل ايراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشخصية، وترك المصلحين يتفرقون شيعاً ويقتل بعضهم بعضاً، وقال: ما كنت أظن أن دعاة الإصلاح يكونون كذلك أعداء العلم.

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الإصلاح لم تنتظر إلا أن تامن عدوها العام، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، فلما

أمتها أخذ بعضها يصول على بعض ، واشتعلت نيران الحروب بينهم ، قال أحد أفاضل مؤرخيهم ، « وكلما ارتفعت طائفة منهم إلى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم فى العمل لإفناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ، ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره فى كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية مالا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أى طائفة كانت . من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف فى الرأى : نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى .

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجة بى إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم ، وإنما أنبه القارىء إلى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه أن يقف عليه فى كتب القوم ، ليعلم أن الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرماً ، وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعاً ، ولو شاء أن لا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلا .

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان ، وهم مع غلوهم فى الدين واشتدادهم فى استعمال سلطانهم على النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد إلا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ، ولم تفتر لهم همة فى نشره وتزيينه للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب فى تخاذل عنه . والأمة الفرنسية — التى كانت تدعى بنت الكنيسة — أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين فى تعاليمهم واجتماعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة ، وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف ، كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحى فى أقطار الأرض .

قال أحد رؤساء البروتستانت — فى خطبة من خطبه التى ألقاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له فى أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية — ما نصه مترجماً : إذا كان الدين المسيحى ليس شيئاً سوى

الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الرومانى) أو الكثلكة التى أدخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتى) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً »

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فإن وفق للنجاح فى سعيه زال الخلاف — إن شاء الله — بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والإسلام .

عود الى سماحة الإسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدى خلفاء بنى أمية والأئمة من بنى العباس ووزرائهم — والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده فى يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضى والحكيم ، وكل يرى فى صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به — وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والإمام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد

رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه » .

بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد — أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الأحاديث [1]

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والأئمة المجتهدون الآخرون

---

(١) رواه أبو الشيخ ابن حيان فى العظمة عن أبى هريرة بسند ضعيف ، ورواه من طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ولكن له روايات أخرى منها رواية الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفى رواية موقوفة على ابن عباس « خير من قيام ليلة » ولشهرة هذا المعنى قال الغزالى : وردت السنة بكذا .

هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته ، والعقيدة فى أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف إلى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون)

يرى القارىء أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وإنما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شىء من التخالف فى الآراء ، شأن الأحرار فى الأفكار الذين أطلقوا من غل التقيد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز والتنابز بالألقاب ، فلا يقول أحد منهم لآخر إنه زنديق أو كافر أو مبتدع ، أو ما يشبه ذلك . ولا تتناول أحداً منهم يد بأذى ، إلا إذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الإخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم فيقطع ليذهبُ ضرره عن البدن كله .

ملازمة العلم للدين

وعروى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمى زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق إلى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله - تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه - وتصدَّر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شؤون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم فى الأغلب ضلالهم ، فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه .

لا أكاد أخطىء القارىء إذا زعم أن المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه إذ كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقى : أو ما يماثل ذلك ـ أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة . وأن الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج إستعد لقبول المرض كما هو معلوم .

إن المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، ثم أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب فقد حملت كتب الإمام الغزالى إلى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزماناً هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ « إحياء علوم الدين » ووضعت فى الشارع العام فى المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين ـ إنه ضال مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة .

إهمال آثار السلف

وإهمال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم ، والنظر فى أقوال سلفهم ، حتى إنك لا تجد اليوم فى أيديهم كتاباً من كتب أبى الحسن الأشعرى ولا أبى منصور الماتريدى ، ولا تكاد ترى مؤلفاً من مؤلفات أبى بكر الباقلانى أو أبى اسحاق الإسفراينى ، وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى السادس . منها تفسير الطبرى وتفسير أبى مسلم الأصفهانى وتفسير القرطبى وتفسير الجصاص وتفسير الغزالى وتفسير أبى بكر ابن العربى وكثير غيرها [1] وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعى أنها

---

(١) قد طبع بعد وفاة الأستاذ رحمه الله تفسيرا الجصاص الحنفى وابن العربي المالكى وكلاهما خاص بأحكام القرآن الفقهية ومن أنفس ما ألف فيها أنصار المذاهب ، وتفسير الطبرى خير منها كما أن كتب ابن تيمية فى العقائد خير من كتب أولئك النظار كلهم .

على دين ، وأن لها فيه سلفاً ، أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث[1] وفراشاً للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحى فى زمن من الأزمان ؟

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له فى أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرؤن من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث فى أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم . فإذا ناظره مناظر فى بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وإن لم يكن القول متفقاً عليه . بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعى عنه ما يقول [2] .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية فى سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقلّ جداً فى المغرب الأقصى ، ولم يبق الإهتمام به إلا فى بعض الصحارى ، وذلك إما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل — وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم فى عمل

---

(١) ألعث « بضم العين مفردها » عثة بضم العين سوسة تلحس الصوف . الفرابي .

(٢) إن هذه الكتب الكلامية لا يوجد فيها بيان مذهب السلف الذى أثبته المحدثون بالروايات الصحيحة وما ينقل فيها عن تفويض السلف فى الصفات والمتشابهات غير سديد.

لا يسد من حاجتهم — وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة فى أوربا أو فى المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شىء، وإن كان فيهـا شىء منه فهو مما لا يعد تعليما دينياً ينظر إليه — وإما للفتور والخمود ، الذى نشأ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة فى الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام فى بعض أشعاره الفارسية مخاطباً للنبى عليه الصلاة والصلام : « إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته .

فهذا الصنف من المسلمين — وهو معظمهم — قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فإذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعاً من دين الإسلام — دين محمد صلى الله عليه وسلم — دين القرآن — دين السنة الثابتة — دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الأولين ؟

متابعة العلم للإسلام ومبايعته لسواه

الحق أقول — والحس يؤيدنى : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم فى الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا فى العلوم الدينية ، توسعوا فى العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، وأما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدّوا فى المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش فى وجوههم . ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له فى الدين عمل ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل والدين ، ولا سبيل إلى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحاً مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذى يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم .

هل عرفت السبب فى اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد فى إبادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن فى صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء فى الإعدام بمجرد التهمة ، فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا فى أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الإضطهاد الإعراض عن العلم ، ورمى الألفاظ

السخيفة فى وجوه أهله ، وقذفهم بشىء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب فى هذا الذى يسميه الأديب اضطهاداً — إنما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذى ينجع فى شفائهم من هذا الداء لا يكون إلا بردهم إلى العلم بدينهم ، والتبصر فيه ، للوقوف على أسراره والوصول إلى حقيقة ما يدعو إليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة .

الدعاة فى الإسلام :

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة فى أطراف بلاد المسلمين كثرتهم فى أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحى [1] إلى أن ظهرت قوة العلم فى أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا . إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين فى عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم — فما يزيد — فى قرن واحد ، ويأخذون فى العمل لما وجهوا إليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم ،

---

(١) كذا فى الأصل المطبوع على عهد المؤلف ولعله القرن الرابع عشر .

(٢) لعل المراد « القرن التاسع عشر » . الغرابي

حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بمـا عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل أن يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور .

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدى أرباب السياسة اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وإنما هى صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة عل الدين فى نظر المنصف .

المقلد دون المقلد .

ربما يقول القائل : إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الأمم السابقة عليهم، خصوصاً أقرب الملل إليهم . فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم ، والتوسع فى علومه مذيلا بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسمين : قسماً ينقطع إلى الآخرة فى الأديار والصوامع ، وقسماً يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ، ويحمى نفسه ويحميهم من العدوان ؟ ومالك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم ، وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل

الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ وطرحوا أنفسهم فى تيار من القدر كما يقولون ، يجرى بهم إلى حيث لا يعلمون ، ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفاً على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم فى شىء للدين ولا للدنيا ، فما هذا التناقض ؟

فأقول له : إنك قد نسيت أن المقلِّد يكون دائماً أحط حالا وأخس منزلة من المقلَّد . فالمقلِّد إنما ينظر من عمل المقلَّد إلى ظاهره ولا يدرى سره وما بنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون فى شر مما كان عليه مقلدوهم لا سيما أنهم قد خلطوا فى التقليد وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آناً ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقى إلى أن يستريح ، فينهض إلى العمل على هدى أو يموت .

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر إلى الدنيا والأخرى تنظر إلى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين ، وأقذوا الأخرى بما هو أجنبى عنهم ، ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما أقذوا .

الإصلاح والمصلحون .

للقائل أن يقول : كيف تدعى أن دعاة العلم والدين قليل بين

المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى فى جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد فى هذه الأيام ؟ كل يقول : دينى ملتى ، إسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الإسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنبهين إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامى كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا آذانا صما وأعيناً عمياً ، وصداً عما يدعو إليه هؤلاء ؟

ويمكننى أن أقول له : إن الصادق فى هؤلاء ليس بكثير عدده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء ، وقلما يدرسون شيئاً من مداولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وإنما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث فى الأرض . وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعملون ، خصوصاً فى أمر الدين ، والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما فى بلاد الهند وبين مسلمى روسيا . ولكن الإصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض من الشرق إلى الغرب فى وقت قريب فانتظر [1] .

---

(١) قد كثر بعد كتابة الإمام هذا تأثير دعوة الاصلاح فى القطر المصرى وغيره بنبذ الخرافات والرجوع إلى مذهب السلف حتى فى الأزهر رغم أنوف بعض أكابر شيوخه ولكن لما ينتظم عقد المصلحين فيكونوا أولى قوة يغلبون بها المفاسد الخرافية والاباحية ، وقد أجاب الإمام عن السؤال الذى أورده عن سبب هذا بما ترى .

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء نبرتهم بين الأوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم إليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هـذه الرقدة التى طال أمدها عليهم ؟ ولم لا يزال أهـــل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الإسلام وحجة عليه ؟

وأقول له : إن حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العلمية ، إلى ما فيه صلاح الجمعية الإنسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصل الصدمات إثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذى قد يكون عمراً لمثل هذه الحالة ثم تقضى نحبها فى آخره . وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له .

الفرق بين التعصبين :

وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الإنصاف أن يذكر المسلمون

فى جانب جمهور المسيحيين إذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن أن يقال إن المسلمين أشد إفراطاً فيه . والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات فى المعاملات ، وما على طالب الحقيقة إلا أن يسبح بفكره فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق . ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال فى الجنوب ثم يرجع إلى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حداً تنظر إليهم فيه الإنسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً .

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لاتجد السبيل إليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والإفراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه ، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد

وهو محال كما يقرره فلاسفتهم (١)

---

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم فشرعت دولتهم فى تنفيذه هو إخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم والإكراه والإجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطنى أو المالى ، وقد أكرهوا سلطان المغرب الأقصى على توقيع ظهير (مرسوم) يخول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك فى شعب البربر ، فأنشأت لهم قانوناً بربرياً بعيداً عن الشريعة الإسلامية بعد الكفر عن الإيمان فى الأحكام الزوجية والإرث وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم بها دين النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الإسلامية ، حتى إذا ما تم لها إخراج البربر من الإسلام ، وهم يزيدون على ثلثى السكان أكرهت العرب على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد . وأما إيطالية الكاثوليكية الموالية للبابا فهى تحاول استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا أطفالهم إيطاليين كاثوليكيين بالقوة القاهرة تنكيلا وتقتيلا ! ! (والله أشد بأساً وأشد تنكيلا) .

رأى هانوتو الأخير

فى معاملة المسلمين

موسيو هانوتو أطلق لقلمه من سنوات أن يجرى فى البحث عن طريقة حكم المسلمين، وقاعدة لمعاملتهم فى البلاد التى يحكمها الفرنسيون وجاء فى فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء [١] ثم بعد أن قتل المسألة علماً ثلاث سنين، ورأى سوء تأثير قوله فى المسلمين، رجع إلى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذى كان ينطق به، ورأى غير الذى كان يصدر عنه. وإنى ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذى ألقاه فى المجمع الجغرافى فى شهر مارس من هذه السنة (١٩٠٢ م) متعلقاً بافريقيا، واقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه، وهو بالمعنى:

« إن القواعد الجديدة التى يجب أن يكون عليها العمل فى إفريقية هى مخالفة القواعد القديمة التى كانت تجرى عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أى قبل ساعة وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التى يعامل بها المحكومون فقال: « إنها الأمن والسلم » ثم قال: « إننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما أننا مدينون

(١) هو أنه طعن فى بعض عقائد الإسلام فرد عليه الأستاذ الإمام كاتب هذا رداً دمغ به جهله بالأديان والتاريخ فرجع عنه واعتذر.

لهم بالتساهل الديني . ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذى له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول : إن التمدن الأوربى يجد فى طريقه فى افريقيا لا سيما فى شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذى هو دين الإسلام ، والذى هو فى هـــذه الجهات (شمال افريقية) أكثر نشاطاً منه فى غيرها ، وهذا الدين يدعو إلى إله واحد ، ويجعل الإيمان بالتوحيد مصدراً لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ، ويستولى على المؤمن استيلاء شديداً فلا يعود يقدر على التلفت منه . فمن المفروض علينا التساهل فى هذا الشأن ، بل ليس التساهل بكاف وحده ، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا فى فهمه . وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسلامية (لا إكراه فى الدين) شعاراً لا نخرج عن حدود معناها . وأن نحترم الدين الإسلامى ونحميه من كل طارىء سوء . ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائرى فى هذا المقام وهى : « أن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة أخوة من ثلاث أمهات » اه محصل كلام هانوتو .

قبل الكلام عليه أسأل القارىء : هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر — فى نسبه إلى صاحب الرسالة ومقامه فى أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة — فى مذهبه ؟ أو سمع مايقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى .

ترى هانوتو يرشد أهله إلى اتخاذ سبيل جديدة فى سياسة المسلمين ،

وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين فى أن يستمروا مسلمين ، واحترام حقوقهم ، وتركهم يعملون بدينهم وعد هذا مبدأ جديداً لم يسبق الجرى على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؟ مسألة فيها نظر [١] فهل يليق بمنصف أن يذكر المسلم إذا ذكر التعصب ما دام فى الكون مثل هذه الدرجة منه ؟

سياسة الإنجليز فى التسامح

نعم نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهى الأمة الانجليزية ، فهى وحدها الأمة المسيحية التى تقدر التسامح حق قدره ، ولا يصعب علينا أن تقول : إن منشأ ذلك أن أمراءها فى الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه ، وقد امتاز الانكليز فى ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً إلى بلادهم ، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق وظهر أثر ذلك فى كثير من كتابهم مثل (ولتر سكوت) و (شيل) وغيرهما قبل أن يظهر فى أقلام الكاتبين من غير الانكليز بأزمان طويلة .

---

(١) ذهب وقت النظر ، وأعقبه دور العمل وعلم أنها لم تجبه بل أغرت رجال النصرانية ودعاتها بأقبح الطعن فى الإسلام وشرعت هى فى محوه من بلاد المغرب كلها وسيرد الله كيدها فى نحرها .

فلنا أن نقول ولا نخشى لائماً : إن هـذه الخصلة الشريفة ـ خصلة اطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احـترام ما يحترمون ـ هي من أجل الخصال التي ورثها غـير المسلمين عن المسلمين وهل أجد من يأبى عليّ القول بأن الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الانكليز وعنه أخذوا هذه الخلة ؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين : يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب ، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة ، لا يفرقون بين دين ودين ؟ (١) وهـكذا كان حال المسلمين وإن كان ذلك على قاعدة أبر وأرحم .

---

(١) نقول مع الأسف : إن الانـكليز طفقوا يرجعون القهقرى في هذا الأمر وفي سائر المزايا التي فضلوا بها غيرهم من الأوربيين . فقد منعوا المنار من السودان منذبضع سنين ، وهم الآن يصادرونه في بلاد أخرى ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .

(هذا ما علقته في حاشية الطبعة الثالثة لهذا الـكتاب سنة ١٣٤١ ومن الإنصاف أن أقول إن حكومة السودان عادت إلى الاذن بدخول المنار في تلك البلاد . وقدمنعته فرنسا من دخول المغرب في هذا العام ١٣٤٩) .

خاتمــــة

فإن قال قائل : أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس فى طول الكلام مجلبة الملل ، وترويح الكسل ؟ قلت : إنى أوجه كلامى هذا إلى أهل النهم إلى الفهم ، وأرباب الشره إلى المعرفة ، ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ما هو أوسع من هـذا المقال وأطول منه أضعافاً مضاعفة ، لأن الموضوع جليل ، والكلام فيه مهما كثر قليل ، وأما القارىء الملول ، فعقله مدخول ، وعزمه مفلول ، وفكره مغلول ، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول ، فلا ينظر إليه فى الخطاب ، ولا يعتد به عند الحساب ، ومع ذلك فأنا واقف عند هذا الحد ، وأنتظر بتفصيل القول فى مسألة أمراض الإسلام وآثار البدع والمحدثات فيه والعلل التى نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى .

وقبل أن أترك القارىء أنبهه إلى أن ما أجمل فى هذه الفصول لم يقصد به الطعن فى حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف ، كما يعرفه القارىء نفسه من لباس المعانى وما يكسوها من الأدب ، والتنزه عن كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر ، وقد يعلم من هذه النزاهة أن هذا رأى طبخناه لنطعمه بأنفسنا ، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ، ولم يكن يخطر ببالنا عندما أجدنا طبخه أن نفيض منه على غيرنا ، لكن إذا عشا السارى إلى ضوء نارنا ، وطاب

القرى منا ، قاسمناه مالدينا ، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة ، وأهنأ من خلق الأناة ، إن شاء الله . ا ه

تم الكتاب والحمد لله

« تنبيه » قد رأينا أن نزيد فى هذه الطبعة ما زدناه فيما قبلها من رد الأستاذ الإمام رحمه الله على مجلة الجامعة فيما كانت كتبته فى فلسفة ابن رشد ونشر فى المجلد الخامس من المنار مع مقدمة المنار له وهو ما تراه فيما يلى : وهو أول ما كتبه الأستاذ من الرد .

الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد

قاضي القضاة في الأندلس (١)

هذا الفيلسوف أشهر فلاسفة المسلمين ، وأكبر أساتذة أوربا في العلم والفلسفة . لأن فلسفته انتقلت من الأندلس (إسبانية) إلى سائر بلاد أوربة فكانت مبدأ نهضة الأوربيين الحاضرة . ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة . وتوفي سنة ٥٩٥ في بلاد المغرب .

وقد نشرت مجلة الجامعة تاريخه وتكلمت عن فلسفته ، واستطردت إلى مسائل أخرى كمذهب المتكلمين في الوجود والمقابلة بين الإسلام والنصرانية في اضطهاد العلم والفلسفة وعدمه . وقد وقع في تلك الترجمة غلط في هذه المسائل . والإنسان دائماً عرضة للخطأ والغلط فيما تعلمه وأتقنه . فكيف يكون حاله فيما لم يتعلمه بالتلقي عن أهله إذا تكلم أو كتب فيه ؟ . وان صاحب الجامعة الفاضل لم يتعلم علم الكلام الذي هو فلسفة العقائد الإسلامية لأنه ليس مسلماً ، ولا فلسفة اليونانيين لأنها قد نسخت بالفلسفة العصرية ، فلا شك عندنا أنه لم يتعمد تكفير القاضي ابن رشد ولا نسبة أئمة المسلمين في العقائد إلى إنكار ارتباط الأسباب بالمسببات . ولكن بعض الذين قرأوا تلك الترجمة في مجلته أساءوا الظن به ، واحتموا عليه ورغبوا إلينا في الرد

(١) منقول من الجزء العاشر من مجلد المنار الخامس بقلم منشئه .

عليه ، لأن من وظيفة المنار الدفاع عن العقائد الإسلامية وعن أئمة المسلمين .

وطلب بعضهم مثل ذلك من بعض أساتذتنا الأعلام ، الذين يرجع إليهم إذا اعتكر من ليل الشبهات الظلام ، ولما رأينا ذلك الأستاذ وعد الطالبين بأن يكتب فى بيان حقيقه تلك المسائل التى وقع فيها الخطأ أمسكنا نحن عن الكتابة ، لأنه هو الأجدر بالفصل بين الحق والباطل ، والذى إذا قال لم يترك مجالا لقائل ، وقد تفضل علينا وعلى الجامعة بما كتب فننشر فى هذا الجزء مقالته فى فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين وسننشر فى الأجزاء التالية مقالاته فى « الاضطهاد فى النصرانية والإسلام »[1]

تمهيد لمقالة الأستاذ الحكيم :

لا بد لفهم قراء المنار هذه المقالة من ذكر ما قالته الجامعة فى فلسفة ابن رشد لأن كاتب المقالة لم يذكر فيها إلا مواضع النقد .
قالت الجامعة :

المادة وخلق العالم :

« إن أعظم المسائل التى شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل الكائنات وهو يرى فى ذلك رأى أرسطو فيقول : إن كل فعل يفضى إلى خلق

(١) هو الذى سميناه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

شيء إنما هو عبارة عن حركة ، والحركة تقتضى شيئاً لتحركه ، ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق ، وهذا الشيء هو فى رأيه المادة الأصلية التى صنعت الكائنات منها . ولكن ما هى هذه المادة ؟ هى شيء قابل للإنفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف . بل هى ضرب من الافتراض لا بد منه ولا غنى عنه . وبناء عليه يكون كل جسم أبدياً بسبب مادته ، أى أنه لا يتلاشى أبداً لأن مادته لا تتلاشى أبداً وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال وإلا حدث فراغ ووقوف فى الكون ، وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة فى العالم ، ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شيء قط . وبناء عليه فالعامل الأول الذى هو مصدر القوة والفعل (أى الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار فى فعله لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثاً ، والخالق تنزه عن أن يكون حديثاً .

اتصال الكون بالخالق :

« هذا فيما يختص بخلق العالم وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى ، ولكن كيف يستولى العامل الأول على الكون ويدبره ؟

« لابن رشد فى ذلك تمثيل يدل على حقيقة مذهبه فى هذه المسألة الخطيره ، فإنه يشبه حكومة الكون — أى تدبيره — بحكومة المدينة

فإنه كما أن كل شؤون المدينة تتفرق وتتجه إلى نقطة واحدة ، وهى نقطة الحاكم العام فيها . فيكون هذا الحاكم مصدراً لكل شؤون الحكم ولو لم تكن له يد فى كل شأن من هذه الشؤون — كذلك الخالق فى الأكوان ، فإنه نقطة دائرتها ، ومصدر القوات التى تدبرها ، وإن لم يكن له دخل مباشر فى كل جزء من هذه القوات ، فبناء على ذلك لا يكون للكون (اتصال) بالخالق مباشرة ، وإنما هذا الاتصال يكون للعقل الأول وحده . وهذا العقل الأول هو عبارة عن المصدر الذى تصدر عنه القوة للكواكب ، وعلى ذلك فالسماء فى رأى فيلسوف قرطبة كون حى ، بل أشرف الأحياء والكائنات وهى مؤلفة فى رأيه من عدة دوائر يعتبرها أعضاء أصلية للحياة . والنجوم والكواكب تدور فى هده الدوائر ، أما العقل الأول الذى منه قوتها وحياتها فهو فى قلب هذه الدوائر ، ولكل دائرة منها عقل أى قوة تعرف بها طريقها ، كما أن للانسان عقلا يعرف به طريقه . وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض ، والتى يلى بعضها بعضاً محكومة بعضها ببعض ، إنما هى عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التى تحدث الحركة من الطبقة الأولى فى السماء إلى أرضنا هذه ، وهى عالمة بنفسها وبما يجرى فى الدوائر السفلى البعيدة عنها . وبناء عل ذلك يكون للعقل الأول الذى هو مصدر كل هـــذه الحركات علم بكل ما يحدث فى العالم .

طريق الاتصال :

« وإن قيل ما هي علاقة الإنسان بالخالق ؟ فالجواب عن ذلك يأخذه ابن رشد أيضاً عن أرسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وخلاصة ذلك أن فى الكون عقلا فاعلا وعقلا منفعلا ، فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الإنسان وغير قابل للامتزاج بالمادة ، وأما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء والتلاشي ، مثل باقى قوى النفس . وإنما يقع العلم والمعرفة باتحاد هذين العقلين .

« ذلك أن العقل المنفعل يميل دائماً للاتحاد بالعقل الفاعل كما أن القوة تقتضى مادة تنفذ فيها . والمادة تقتضى شكلا توضع به . وأول نتيجة تحصل من هذا الاتحاد تدعى العقل المكتسب ، ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحاداً أشد من هذا فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها جد الامتزاج بالعقل القديم الأزلى ، ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل الاكتسابى الذى تقدم ذكره . فإنما وظيفة العقل الاكتسابى إيصاله إلى حرم الخالق الأزلى دون أن يدغمه به ، وأما إدغامه واتصاله به فذلك أمر لا يتم إلا بطريق (العلم)

فالعلم إذاً هو سبب (الاتصال) بين الخالق والمخلوق ولا طريق غير هذا الطريق ، ومتى اتصل الإنسان بالله صار مثله عارفاً بكل شيء فى الكون ولم يعد يفوته شيء ، ولكن كيف يتصل الإنسان بالله ؟

« يتصل به بأن ينقطع إلى الدرس والبحث والتنقيب ويخرق بنظره حجب الأسرار التي تكتنف الكون ؛ فإنه متى خرق هـذا الحجاب ووقف على كنه الأمور وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الحقيقة الأبدية .

أما المتصوفة فإنهم يقولون إن هـذا (الاتصال) يتم بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد وليس العلم ضرورياً له .

« وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادى ، قاعدته العلم ، والكون فى رأيه ، كما مرّ بك — إنما صنع بقوة مبادىء قديمة مستقلة محكومة بعضها ببعض ، وكلها مرتبطة ارتباطاً مبهماً بقوة عليا ، ومن هذه المبادىء شىء يستولى على العالم ويضع فيه العقل فهو عقل الإنسانية ، وهـذا الشىء الذى يسميه عقلا أيضاً هو عقل ثابت لا يتغير ، أى أنه لا يتقدم ولا يتأخر ، لا يزيد ولا ينقص والناس يشتركون فيه ويستمدون منه بكميات متباينة على أن من كان منهم أكثر استعداداً منه كان أقرب إلى الكمال والسعادة » .

الخـــلود

ثم تـكلمت الجامعة بعد ما تقدم عن رأى ابن رشد فى خلود النفس فقالت بعد كلام ما نصه : « قال إن العقل الفاعل العام الذى تقدم ذكره من صفاته أنه مستقل ومنفصل عن المادة وغيرها ، غير قابل للفناء والملاشاة . والعقل الخاص المنفعل من صفاته الفناء مع جسم الإنسان ، وبناء عليه يكون العقل العام الفاعل خالداً والعقل المنفعل فانياً ، ولـكن ما هو العقل الفاعل العام الذى هو خالد فى رأى ابن رشد ؟ إن هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الإنسانية فالإنسانية إذاً هى خالدة وحدها دون سواها ، وبناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شىء مما يقوله العامة عن الحياة الثانية » اهـ كلام فرح أفندى أنطون فى الجامعة .

وهاك رد الإمام عليه :

دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين

لأستاذ حكيم ، وفيلسوف عليم (١)

قرأت ما نشرت الجامعة من ترجمة ابن رشد ومررت على ما نقلت من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق لأنني أعرف آراء الفريقين من قبل ، ولم يكن لى قصد إلى النقد وإنما أريد أن أستفيد جديداً ، لهذا لم يقف نظرى لأول وهلة إلا على ما حوته تلك الجملة (الاضطهاد فى النصرانية والإسلام) قرأتها بترو وانتهيت منها إلى حكم من الجامعة يخالف ما أعتقد ، ولا يلتئم مع ما أعرف ويعرف العارفون من الشواهد التاريخية . عند ذلك تحركت نفسى إلى كتابة سطور ، أشير فيها إلى كشف مستور ، أو إعادة ذكر مشهور ، على أسماع الجمهور .

لاقانى بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الأثر فى نفسه أشد ، ولسانه فى العتب أحد ، وذكر أشياء فى غير هذا الفصل من الترجمة ولفتنى إلى إعادة النظر فيها . رجعت إلى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان منى الكلام عليهما ، وبأن أحادث الجامعة فيهما ، لو كانت منزلة الجامعة من نفسى منزلة غيرها من المجلات التى

---

(١) هو الأمام الشيخ محمد عبده لم تصرح باسمه وقتئذ . ولكن عرفه كل من قرأ بالرد وهذا المقال أول ما نشر منه فى المنار .

لا يعنى كاتبوها إلا بنقل ما يقع تحت أنظارهم ، أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفكارهم ، من دون عناية بتقرير الحقيقة ولا رعاية لمعتقدات القراء — لوجدت من شواغل عملى ما يصرفنى عن ذكر ما عرض فيها ، لكنها من المجلات التى لو أهملت مباحثها من إنعام النظر ، وجعلتها فى جانب عما تستحقه من النقد لبخستها حقها ، ونبوت بها عن موضعها .

لهذا رأيت أن أذكر لها ما رأيت فى ذينك الموضعين وأبين حقيقة الأمر فى الثالث . أما الموضعان فهما (فلسفة المتكلمين وآراؤهم فى الوجود) و (فلسفة ابن رشد وآراؤه فى خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الإنسان به والخلود) وهما موضوع كلامى اليوم .

فلسفة المتكلمين وآراؤهم فى الوجود

قالت الجامعة : « فلسفة المتكلمين هذه (أى فى وجود العالم) مبنية على أمرين : الأول حدوث المادة فى الكون أى وجودها بخلق خالق . والثانى وجود خالق مطلق التصرف فى الكون ومنفصل عنه ومدبر له . وبما أن الخالق مطلق التصرف فى كونه فلا تسأل إذاً عن السبب إذا حدث فى الكون شىء لأن الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواه ، إذاً فلا يلزم عن ذلك قطعياً أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق ، كأن ينتج بعضها عن بعض لأن هذه

الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده . وفى الإمكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن وذلك بقدرة هذا الخالق » ثم ذكرت فى الجملة التى تلى ما تقدم أن هذه فوضى ، وأن روحاً جديداً أخذ يدخل شيئاً من النظام فيها [١] .

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق فإن الخلق فى اصطلاحهم هو الإيجاد وكون المادة صادرة عن موجد لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الإلهى . فأرسطو يقول إن المادة قد استفادت وجودها من موجدها وهو الواجب . وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال على ما سيأتى بيانه ، وإن كان لا أول لوجودها . وإنما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة ، بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهى إليها سلسلتها من جانب الماضى ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا الله وحده وصفاته عند القائلين بأنها وجودية ، وقبل هذه البداية التى لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون ، ثم إنه أراد إيجاد الكون فأوجده من العدم البحت ، هـــذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر من المسيحيين واليهود أيضاً ، فلم يخالف فيه ملى من أهل الملل الثلاث .

---

(١) ذكرت الجامعة أن منبع هذا الروح النظامى فى مجلة المنار واستشهدت لذلك بالتفسير الذى يقتبسه من دروس الأستاذ الإمام كبير رجال النهضة الإسلامية الحاضرة .

أما كون هـذا المذهب وحده هو الذى يصح أخذه من القرآن أو أنه يجوز أن يتفق مع معانى القرآن رأى آخر ، بل هو الذى يظهر منه فذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن [١] فإن كلامنا فى تصوير مذهب المتـكلمين .

الأصل الثانى — وهو وجود خالق مطلق التصرف — لازم للأصل الأول ، لأن هذا العالم إذا كان موجوداً بفعل موجد فموجده هو خالقه وهو مطلق التصرف ، بمعنى أنه يختار ما يخلق على الوجه الذى يخلق ، والمتـكلمون ، وإن اتفقوا على أن خالق العالم مختار انقسموا إلى فريقين عظيمين ، فالقدرية منهم — ويسمون بالمعتزلة أيضاً — قالوا : إن الخالق وضع للـكون نظاماً تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين وأودع فى المخلوقين قوى أو قدراً تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية أو بطريق الإرادة والاختيار فهذا فريق من المتـكلمين لا يخالف الفلاسفة فى قولهم بلزوم الآثار لمصادرها ، أو تأثير قدر المخلوقين فى أفعالهم وقد بقى من أهل هـذا المذهب إلى اليوم طائفة الشيعة الامامية والزيدية فإنهم لا يخالفون المعتزلة فى هذه الأصول ، فإذا حدث فى الـكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشر له — وإن كانت جميع الأسباب تنتهى إلى مصدرها الأول وهو الخالق — كما يسأل الفيلسوف بلا فرق .

---

(١) وقد أشار إليه فى الـكلام على طبيعة الإسلام فى التمهيد للأصل الأول من أصوله (ص ٥٠)

والفريق الآخر الذى عنته الجامعة ، وهو الذى يرى إسناد الآثار إلى الخالق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها : بل قال إن الله يصدر وجود المسبب عند وجود السبب ، فلا يقال إن الأكل ـ مثلا ـ هو الذى يحدث الشبع ، بل الشبع شيء يحدثه الله عند الأكل ولكنه لا يحدثه عند الخوى إلا إذا أراد أن يخرق النظام الذى جرت به سنته لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه . وحمل هذا الفريق على هذا القول إنكار نسبة الإيجاد ومنح الوجود إلى شيء سوى واجب الوجود . وقالوا فى الأفعال الاختيارية : إن الله يوجدها عند تعلق كسب العبد بها . ولهم فى تصوير معنى الكسب كلام طويل لا يليق بهذا المقال استيفاؤه (١)

وقالوا إن الأسباب والآلات لا بد منها فى صدور الأثر ، إلا أن الذى يعطيه الوجود عند استكمالها هو الخالق ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن التكليف بالأحكام الشرعية يعتمد التمكن من الإتيان بالمكلف به من حيث حال المكلف ، وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشيء إلا إذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه . غير أنهم يلقبون هذه الأسباب بالعادية ، لأنه ليس من الواجب على الخالق أن يلتزمها مع اعتقادهم بأنه قررها وجرت سنته بها ، ولقبوا ما يحدث فى العالم مخالفاً لها بخارق العادة وليس كل غريب عندهم خارقاً للعادة

---

(١) المراد بهذا الفريق الاشعرية وهم الفريق الأكبر من المتكلمين .

بل الخارق هو مالا يدخل فى مكنة قوة حادثة ، ولا يقدر على إحداثه إلا القادر على مخالفة النظام الذى سنه وهو الله .

هذا الفريق من المتكلمين يستند فى إثبات صفة العلم لله تعالى إلى مافى هذا العالم من النظام وإلى ما حواه ذلك النظام من الأسرار والحكم وهل يتأتى هذا الاستناد منهم إن لم يقولوا بوجود العلاقة بين الأسباب ومسبباتها ؟

كان من هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيراً من الفنون كالطب وعلوم المواليد الثلاث : الحيوان والنبات والمعدن — منهم الأئمة الرازيون ، كفخر الدين الرازى وأبى بكر الرازى ومحمود الرازى وأمثالهم ومنهم الإمام أبو بكر الباقلانى . وكيف يتيسر لقائل إنه لا علاقة بين الأسباب والمسببات أن يبرع فى فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار وما يقارنها فى العادة مما هو مصدر لها فى بادىء النظر ؟

فإذا حدث فى الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذى جرت عليه سنة الله بأن يكون معه ، وإن شئت قلت سأل عن السبب الذى أصدر الله وجوده عنده ، وهل يمكن أن يقول المتكلم إنه لا علاقة بين الولد وبين وجود والديه ، أو بين جودة العمل وعلم العامل ، أو بين غزارة الثمر وخدمة الشجر ؟ هذا شىء لم يقل به قائل منهم قط ، وإلا لما قرأ واحد منهم كتاباً ، ولاحظ فى

صحيفة سطراً ، لأنه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والإفهام .

فإن شئت أن تقول : إنه مذهب مع ذلك غامض يكد الذهن فى فهمه ، فلك أن تقول وأن تنعم النظر ، حتى تفهم مبانيه وأصوله ، وأن تناقش بالدليل الدليل ، وعلى الله قصد السبيل .

القول بنفى الرابطة بين الأسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد فى كتابه : إن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحوّل عن مكانك فيتحول الجبل[1] يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها إذا أخلص المصلى فيها كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى . وليس هذا الدين هو دين الإسلام . دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) الآية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) الخ (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وأمثالها (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) الآيات .

فلا يمكن لأهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب فى هذا العالم والمسببات . ولهم أن يتيهوا على أرباب ذلك

---

(١) يشير إلى ما جاء فى انجيل لوقا من الباب ١١ : ٢٣ لأنى الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولا يشك فى قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم » .

الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أساسه على وعث من الخوارق (١) لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه إذا سال عليه سيل الدليل ، وإنما وضع على مستقر من الحقائق لا يتزلزل بالقائم عليه مهما عظم القال والقيل ، وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله .

نعم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين إلى أئمة ذلك المذهب وأساءوا الظن بالقدر وتظاهروا بترك الأسباب فى أقوالهم ، وإن كانوا أشد الناس تمسكا بها فى رذائل أعمالهم ، وتعلقوا من الخوارق بحبل واهن ميلا إلى أهواء من جاورهم من الملل . فظن الناظرون فى قذائف أفواههم أن هذه الأوهام مما بنى عليه اعتقاد أسلافهم ، فلا يغترن بعد ذلك مغتر بما يظن أولئك الناظرون ، ولا بما يتوهمه هؤلاء الواهمون (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) .

هذا ما يتعلق برأى الجامعة فى مذهب المتكلمين أو فلسفتهم ونتتقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه .

---

(١) الوعث بالواو ـ المكان الرخو والأرض اللينة تسيخ فيها الأقدام والحوافر .

فلسفة ابن رشد ورأيه فى المــادة وخلق العالم

قالت الجامعة « إن المــادة ضرب من الافتراض لا بد منه» الافتراض يراد به عند الإطلاق الفرض، وهو فى إصطلاح الفلاسفة ما لا وجود له، والمادة عندهم موجودة، كما قالت الجامعة فيما قبل ذلك التعريف وفيما بعده.

ثم قالت: « وبناء عليه فالعامل الأول الذى هو مصــدر القوة والفعل (أى الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار فى فعله، لأن الحرية والاختيار يقضيان كونه محدثاً، والخالق ينزه عن أن يكون حديثاً » وقالت بعد هــذا بسطرين « وهو (أى مذهب ابن رشد) مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى » ثم ذكرت « أن الفيلسوف يشبه حكومة الكون بحكومة المدينة وأن المباشر للتصرف فى الكون هو العقل الأول وحده، وأن السماء كون حى مركب من عدة دوائر والعقل الأول فى قلب هذه الدوائر ولكل دائرة عقل أى قوة تعرف بها طريقها » الخ.

أما مسألة نفى الاختيار فقد ذكرت على إبهامها وأدى ذكرها كذلك إلى استنتاج أن مذهب ابن رشد قريب من مذهب المــاديين، وليس الأمر فى حقيقته كذلك.

يعلم كل ناظر فى مذاهب فلاسفة اليونان أنهم كانوا فريقين إلهيين وماديين ، والأولون فريقان مشاءون وإشراقيون ، واشتهر أتباع أرسطو باسم المشائين ، وأتباع أفلاطون باسم الإشراقيين .

وأول مميز للإلهيين عن الماديين أن الأولين يقولون بوجود واجب برىء من المادة والماديات ، وبوجود عقول مجردة عن المادة وغواشيها ، وبأن للواجب علماً بذاته وبجميع ما يصدر عنه وعن آثاره ، وأن للعقول المجردة عقلا وعلماً بذواتها وبمبدئها ، وبما يصدر عنها ، والماديون لا يقولون بشىء من ذلك ألبتة ، فالتقريب بينهما تقريب بين النقيضين . وابن رشد من مقررى مذهب أرسطو فهو من الإلهيين ؛ وتشبيه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة أكبر دليل على مفارقة الماديين ، كما يفارق المجرد المادة . وقد شرطوا فى هذا التشبيه أن المدبِّر خارج عن المدبَّر مفارق له منزه عن مخالطته .

وأما العقل الأول فليس كما تقول الجامعة ، فإن العقل الأول جوهر مجرد عن المادة وهو أول صادر عن الواجب ، وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الأطلس ، ونفس ذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية ، وعقل آخر هو العقل الثانى وعن هذا الثانى صدر الفلك الثامن المسمى عندهم بالعقل الفعال أو العقل الفياض ، وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية وإليه يرجع ما يحدث فى عالمها ، ولا يكون العقل الأول ولا غيره من العقول فى قلب تلك الدوائر عند أحد

من هؤلاء الفلاسفة الالهيين ، بل هو مفارق لها ، كما أن نفوسها جواهر مفارقة أيضاً ، ولها تعلق بأجسادها كتعلق أنفسنا بأبداننا على ما سيأتى بيانه .

والذى حمل الالهيين على ذلك مبالغتهم فى تنزيه الواجب وقولهم : إنه واحد من جميع الوجوه وزعمهم أن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا الواحد فيلزم أن لا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العقل الأول . ولما تعددت وجوه العقل فى ذاته والنسبة بينه وبين مصدره وعقله لذاته وعقله لموجده صح أن يصـــدر عنه متعدد ، ولهم فى الاستدلال على حياة الأفلاك مقدمات لا حاجة إلى ذكرها لأن الكلام فى تصوير مذهبهم لا فى تقريره أو إبطاله .

فالعقول عند الفيلسوف ليست مخالطة للمادة ولا يغشاها شىء من ظلماتها ، وليس العقل الأول بمدبر الكون ، وإنما هو مصدر الفلك الأطلس ومفيض نفسه عليه وخزانة معقولاته ، وهكذا الأمر فى كل عقل مع الفلك الذى صدر عنه . وتدبير العالم العنصرى وهو ما دون فلك القمر راجع إلى العقل العاشر وهو العقل الفعال .

قال الفلاسفة الإلهيون : ولا يجوز أن تكون لأفعال الله غايات وأغراض تبعثه على إصدارها ، وأن ما يصدر عنه إنما يفيض بمحض الوجود المطلق عن غنى مطلق . وقد صرح ابن رشد فى تهذيبه لإلهيات أرسطو بذلك ، هذه مبالغة منهم فى نسبة الكمال إلى الله على أن ما يصدر عنه إنما يصدر عن علم ، فالذى ينفى عنه إنما هو الاختيار

بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح إحداها ، وأما الاختيار بمعنى أن الفعل صدر عن علم العالم بدون إكراه عليه فذلك لا ينفيه أحد منهم ، والمليون من متكلمين ولاهوتيين وإن لم يصرحوا بذلك قالوا بما يؤول إليه والتزموه ، فقد ذهب جمهورهم والمعول على رأيه عند قومه منهم ، أن علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلا وأبداً ، وقد تعلقت إرادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه ، وعلمه لازم لذاته أزلى بأزلية ذاته ، وكل ما يكون فى الكون لا بد أن يقع على وفاق علمه الأزلى جل شأنه ، فلا تردد عنده بين الغايات بل ما يصدر عنه اليوم كان لا بد أن يصدر عنه ، والأسباب والمسببات وارتباطها بعضها ببعض مما انتظم فى علمه ، فهى تصدر عنه على حسب ترتيبها فى العلم .

وسواء كان هذا القول غامضاً أو غير غامض ، وسواء توجه عليه من النقد ما يصعب الجواب عنه إذا روعيت بقية الأصول أو لم يتوجه . كل ذلك لا يدفع عنهم أنهم قالوا بنفى الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس ، وإن ثبت الاختيار بالمعنى الذى يليق بكمال الله تعالى ، فالفلاسفة وجمهور المتكلمين واللاهوتيين على وفاق فى حقيقة المسألة وإن اختلفت العبارات ، فابن رشد رحمه الله لم يخرج فى آرائه عن المليين ، فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريباً منه .

طريق الاتصال

يتوهم الناظر فى هذا العنوان فى الجامعة مع مراعاة الفصل الذى تقدمه فيها أنه عنوان لرأى ابن رشد فى طريق اتصال الكون بالخالق ، فإذا استمر فى قراءة ما بعد العنوان إلى آخر الفصل علم أن المراد طريق اتصال الإنسان وحده بخالقه ، وعثر فى آخر البحث على هذه العبارة « وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادى قاعدته العلم » وأما ما بين العنوان وهذه العبارة فهو مما لا يمكن أن يتحصل له معنى مفهوم فى مذهب الفيلسوف .

وإنى ذاكر لك رأيه فى اتصال الإنسان بالله أى قربه منه وسعادته به ، وفى طريقة تكميله لنفسه ، حتى يستعد لذلك القرب ، وبذلك تعرف أن ما جاء فى الجامعة ليس بالذى تصح نسبته إليه ، خصوصاً بعد قولها إنه أخذ مذهبه فى ذلك عن أرسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وما قاله أرسطو فى ذلك الكتاب معروف مشهور .

أثبت أرسطو وتبعه ابن رشد وجل فلاسفة الإسلام أن نفس الإنسان التى هو بها إنسان — وهى ما يلقبونها بالنفس الناطقة — جوهر مجرد عن المادة لا هو جسم ولا حال فى جسم ، وإنما له علاقة بالجسم يدبره ويصرفه ، وشبهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها ، ولهذه النفس آلة فى الجسم بها يكون التدبير .

وقالوا : إن انطباع المحسوسات والمعانى الجزئيـة فى الحواس الظاهرة والباطنة — على ما فصلوه — يعد النفس لقبول الكليات ويهيؤها لتلقى المعقولات عن مفيضها عليها وهو العقل الفعال الذى سبق لنا ذكره وجعلوا مراتب النفس فى استحصالها كمالها العلمى وبلوغها ذروته أربعا :

الأولى : العقل الهيولانى وهو قوة استعداد النفس نحو المعقولات وتسميته عقلا تسمية مجازية .

الثانية : العقل بالملكة وهى القوة التى تحصل للنفس عندحصول المعقولات الأولى مثل الجزء والكل ومثل الحكم بأن الأول أصغر من الثانى ومثل النفى والإثبات والحكم بأنهما لا يجتمعان فى محمول واحد لموضوع واحد ، وكذلك كل ماخلص من محسوس وهو لايحتاج فى تخليصه إلى فكر ، والنفس تتهيأ بهذه القوة لاكتساب المعقولات الثانية إما بالفكر وإما بالحدس ، وليس الحدس هو الظن كما هو فى المشهور بل هو سرعة انتقال النفس من المبادىء إلى المطالب أوانتقال النفس من المعلومين إلى الوسط الذى يصل بينهما ومن ذلك إلى معلوم ثالث بلا تجشم نظر . ولذلك جعل مقابلا للفكر الذى هو النظر بعينه

الثالثة : قوة تسمى العقل المستفاد ، وهى أن تحصل المعقولات الثانية بالعقل متمثلة كالأولى مشاهدة فى الذهن .

الرابعة : قوة تسمى « العقل بالفعل » وهى ما به تتمكن النفس

من استحضار المعقول المكتسب المفروغ منه متى شاءت من غير افتقار إلى اكتساب .

قالوا : والذى يرقى بالنفس فى هذه المراقى هو العقل الفعال ، وهو ذلك العقل العاشر المصرف للمادة العنصرية لا عقل الإنسانية العام كما تقول الجامعة فإن أرسطو وابن رشد لا يقولان بعقل يسمى عقل الإنسانية العام بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون التى عنى أرسطو بإبطالها وتبعه ابن رشد وغيره فى نفيها ، فالعقل الفعال هو الذى يخرج النفس من العقل الهيولانى إلى العقل بالملكة ، ومن العقل بالملكة إلى العقل المستفاد ، ومنه إلى العقل بالفعل .

ولما كان العقل الفعال جوهراً عقلياً بالفعل ، كانت المعقولات بأسرها حاصلة له بالفعل . وأما نفوسنا فهى عقول بالقوة ، ولكنها إذا استعدت استعداداً خاصاً للاتصال بذلك العقل أى بالإقبال عليه وتوجيه وجهتها نحوه ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الإستعداد الخاص لأحكام خاصة وإدراك المعانى الجزئية بواسطة الحواس وحركة النفس فى المعقولات الأولى والبحث والتجربة والدرس وما ينحو هذا النحو ، كل ذلك من محصلات الاستعداد لقبول المعقولات فى الموضوعات التى كان الاستعداد فيها ، فإذا أعرضت النفس عن العقل الفعال والتفتت إلى جانب الحس أو إلى صورة أخرى غير التى حصلت لها بذلك الاستعداد انمحى المتمثل

الذى كان أولا ، كأن المرآة التى كان يحاذى بها جانب القدس ، قدأعرض بها عنه إلى جانب الحس ، أوإلى شيء آخر من الأمور القدسية

فالوا : وهذا الاتصال الذى يفيض به العقل الفعال على النفس ما استعدت له من المعقولات له عـــلة وعلته قوة بعيدة هى العقل الهيولانى وقوة كاسبة هى العقل بالملكة وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الإشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهى المسماة بالعقل بالفعل .

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يعتد بقولهم ، وفيها ما يشبه ما نسبته الجامعة لابن رشد ، منها أن الجوهر العاقل إذا عقل صورة عقلية صار هو إياها ، واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه أن تصير النفس جميع المعقولات التى تحصل لها وتصير المعقولات كلها معقولا واحدا ، بل يلزم عليه انعدام النفس ووجود ما عقلته أو استحالة النفس إليه وهو محال وخلاف الفرض .

ونقلوا عن (فرفوريس) أنه قال : إن النفس الناطقة إذا عقلت شيئا فإنما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال — وهو حق فى رأيهم — ولـكنه قال : إن معنى اتصالها بالعقل الفعال أن تصير هى نفس العقل الفعال ، لا أنها تصير العقل المستفاد والعقل الفعال يتصل نفسه بالنفس فيكون العقل المستفاد ، وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم

أن يكون العقل الفعال متجزئاً قد يتصل منه شيء دون شيء — وهو مجرد لا يتجزأ — أوتتصل به النفس اتصالا واحداً تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل معقول وهو ليس بحاصل فى جميع الأحوال . وقالوا : إن دعوى اتحاد شيء بشيء آخر — على معنى استحالة الأول إلى الثانى —قضية شعرية غيرمعقولة فلا يصح النظر فيها ، وأما استحالة النفس الى العقل الفعال فلم يقل به أحد .

فقد عرفت من هذا أن اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام كما عرفته الجامعة ، بل معناه أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وتنجذب نحو العالم الأعلى ، فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها لمطلع ذلك النور الأجلى فهل مع هذا يصح أن ينسب الى الفيلسوف ما عده غير معقول ؟

قال الفيلسوف وشيعته : إن النفس الناطقة التى هى موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة فى جسم تقوم به ، بل هى جوهر عاقل ذو آلة بالجسم فإذا استحال الجسم عن أن يكون آلة لها وحافظاً للعلاقة معها بالموت لم يضر ذلك جوهرها بل تكون باقية بما هى مستفيدة الوجود من الجواهر العقلية ، فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا، تعدم شخصيتها بالفناء فى شيء سواها لا عقل فعال ولا وجود واجب ، وهى تسعد بكمالها العلمى والأدبى الذى حصلته مدة تعلقها بالبدن . وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعد فراقها

للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيل فيه ما هو لذة لها . وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها ، فالنفس عند الفيلسوف باقية خالدة ، خلودها خلود لشخصها المميز من كل شيء سواها ، سواء كان عقلا فعالا أو غيره .

فهل بعد هذا يعد الفيلسوف مادياً ومذهبه مذهباً مادياً ، قاعدته العلم ؟ لا بل هو إلهى ومذهبه مذهب إلهى قاعدته العلم قائل بخلود النفس وسعادتها وشقائها وعذابها ونعيمها كما رأيت .

ما نقله فلاسفة أوربا عن ابن رشد :

بقى علينا أن نشير إلى ما نقله فلاسفة أوربا عن الفيلسوف الجليل ابن رشد فى مبدأ العالم ومصدر وجوده . قالوا : لم يكن يعرف العلم والفلسفة عند الأوربيين إلا فى مدارس المسلمين فى أسبانيا ، فكان يقصد تلك المدارس طلاب للعلم من كل ناحية . كان يجلس فى درس الفيلسوف عدد عظيم . لم تأت نهاية القرن الثانى عشر (الميلادى) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشيء من العلم رأى زعزع طمأنينة الكنيسة وأفزع القابضين على مفاتيح القلوب فى ذلك الوقت الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاءوا من العقائد والأفكار أن يدخل فيها ويطردون عنها ما شاءوا . ذلك الرأى الذى أخذ يتسرب إلى القلوب رغم حجابها هو أن الكون أجمع يرجع فى وجوده إلى واحد هو حياة الكل وهو روح يقوم به كل جزء منه . وقالوا : إن الذى نشر هذا المذهب بين الناس هم تلاميذ ابن رشد . فنبهم بعض علمائهم أن ابن رشد كان يقول إن مبدأ العالم هو أصل عرضت له صور العالم أو روح ظهر فى مظاهر

الكائنات كما يقول الصوفية أو نحو ذلك . واستتبع هـذا رأياً آخر وهو أن كل صورة من صور الموجودات إذا بطلت فإنما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق . وظن الواهم أن الأرواح تعود بعد مفارقة الأجسام ، إلى مشرقها العام ، و تفقد امتيازها فيه ، وذلك كله ـ وإن ذهب إليه بعض النظار من الأوربيين ـ غير ما يقول ابن رشد ، وأما ما يقول ابن رشد فهو ما ترى :

قال ابن رشد ـ وكل من تابعه على رأيه ولم يخالفوا فى ذلك أرسطو : إن الممكن لا وجود له فى ذاته وإنما يستفيد الوجود من غيره ، وقد كانوا قالوا إن جميع ما فى الكون ما عدا واجب الوجود المبرأ من المادة وغواشيها فهو ممكن ، فكل ما فى العالم فهو مستفيد الوجود من غيره ، فذلك الغير إن كان ممكناً فكيف يعطى الوجود وهو لا وجود له إلا من غيره ؟ فإذا استمد منه مستمد فإنما يستمد من فضل ذلك الوجود الذى جاءه من موجده إلى أن ينتهى إلى الوجود الأول فكل وجود سطع على الممكنات فهو فائض من وجود الواجب فلا وجود إلا من وجوده ، أو كل وجود فهو شعاع لضياء وجوده ، فإذا حرر المعنى من هـذا على وجه أمكن عند العقل وجدته يرجع إلى ما قاله السيد الشريف من أئمة أهل السنة وغيره وهو :

« إن الممكن ليس بشىء فى ذاته ثم يكون شيئاً بالإيجاد ، والإيجاد لو حققته أمر اعتبارى انتزاعى له منشأ فى الواقع وذلك المنشأ هو ذات الموجد وماهية الموجود الممكن التى صارت شيئاً بتلك العلاقات الاعتبارية

بينها وبين موجدها، وهى ما يسمونه تعلق القدرة بالمقدور، وماهية الممكن ليست بوجود ولا الوجود أمر موجود قائم بها. فإذاً ليس من وجود فى نفس الأمر إلا وجود الواجب، فكان الوجود الحقيقى واحداً وسائر ما يسمى وجوداً أو موجوداً فإنما ينال ذلك بالإضافة إلى الوجود الحقيقى. وأولى بالتسمية أن تكون مجازية من أن تكون حقيقية».

مع ذلك لا يزال صاحب هذا القول يعتقد بتجرد الواجب عن المادة والمدة إلا أن من تلقفه منه توسع فيه حتى كان من ذيوله رأى القائلين بأن الموجد الأول روح سار فى العالم وإليه يرجع كل أشخاصه لفناء شخصيتهم فيه وما هو برأى ابن رشد ولا يعرفه.

على أن الصوفية ـ وهم المصرحون بوحدة الوجود المعبرون بالشهود أولا والفناء آخراً الناطقون فى ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم ـ لم يقولوا بزوال هويات النفوس زوالا حقيقياً، بل قالوا إنها خالدة بعد مفارقة الأبدان، ولكنها تسعد فى خلودها، باستغراقها فى شهودها، وذهولها عن كل ما يشغلها عن مصدر وجودها، فهى غنية بعرفانه عن معرفتها بنفسها، وهو ما يعبر عنه بالفناء ولذته، وهو معنى تقصر دون إيضاحه العبارات، وإن كفى فى تعريفه لأهله أخفى الإشارات.

ولعل الجامعة لا تعتب على الكاتب فيما كتب، وفيما أجاب به من طلب فقد وفى حقاً لها لو أغفله مع علمها بالقدرة عليه، لحق لها أن توجه العتب إليه

هذا ما أردنا إيجاز القول فيه متعلقاً بفلسفة المتكلمين ورأى الفيلسوف وسنتبعه بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة من الكلام، على الاضطهاد فى النصرانية والإسلام إن شاء الله تعالى.

تأثير هذا المقال وتقريظه

يقول جامع هذا الكتاب وناشره : كتب هذا الإمام الكبير مقاله فى أيام معدودات ، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات ، ولقد كان لنشره من التأثير فى عالم العلم والدين ، ما لم نره لكلام أحد من الكاتبين ، طارت به اغتباطا قلوب المسلمين ، ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين ، ورددت صداه المنعكس عن المنار ، بعض الجرائد فى مصر وغيرها من الأقطار

قالت جريدة الوطن القبطية الغراء بعد ما ذكرت انتقاد الجامعة فى عدد ١٣ : ٢١

« فهب المنار الأغر ينشر بالتوالى رداً مفحما طويل الأذيال لإمام تغنى كنيته عن التصريح باسمه . ضمنه تفنيد أقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتى بالواحدة ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى . ولا يزال المؤيد الأغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها . والرد كما قلنا قوى الحجج، متين العبارة ، لم يسبق فيه واضعه عالم قديم أو حديث » اه المراد منه .

وجاء فى العدد ٣٢٤ من جريدة المناظر المفيدة التى تطبع فى سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه : « وقد طالعنا رده فى مجلة المنار ورأينا

فى قسم الرد الثانى — أى الكلام على أية الديانتين أكثر تساهلا للعلم حجباً حرية بالاعتبار ، ورأينا أنه من المفيد أن يطلع المسيحى على رأى إمام مسلم عصرى فى المسيحية فاخترنا نقله »

ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا المقال فصلا فصلا . وقد رأينا فى آخر عدد وصل إلينا منها مقالة وجيزة لأديب مسيحى ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال : « رد عليها الرجل الإسلامى العصرى بل رجل الإسلام فى هذا الزمان .... رداً أثبت به أن الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة فيستطاع أن يقال: إن انتصار العلم فى أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الإسلامية تساهلا ؛ ووعد ببيان (لم يصلنا بعد) يرجع به انتصار العلم فى أوربا إلى أسبابه الحقيقية فهل أصاب صاحب الجامعة فى جعل تساهل المسيحية سبباً لانتصار العلم فى أوربة ؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل اضطهدت العلم اضطهاداً فالجواب « كلا لم يصب صاحب الجامعة » ثم ذكر الكاتب أن سبب القوة والعلم فى أوربا يرجع إلى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها إلخ .

وكتب إلينا عالم مسيحى من سورية — تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق (هو الأستاذ جبر ضومط الشهير) ما نصه :

« ما أسمى ما كتب الإمام فى العددين الأخيرين من المنار ؛ يحق لنا أن نفتخر به المسلمون والنصارى معاً ، لا تحصروا الفخر فيكم أيها المسلمون بل فاسمحوا لنا أن نشارككم كما يشارك البروتستانتى

الكاثوليكى فى إنكلترا بالفخر بأحد علماء بريطانيا .

وكتب إلينا غيره بمعنى ذلك وإن كان بعضهم انتقد بعض ما كتب فى النصرانية وقال إن تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحى نفسه ونحن المسلمين نقول بذلك ، نقول إن الصورة التى انقلبت إليها ديانة المسيح عليه السلام هى التى نشأ عنها ما تقدم ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شىء من ذلك .

وأما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه ، ولم يرض باعتذارنا عنه ، بل أصر على طعنه بالإسلام ، وأضاف إليه الطعن بنا وبالإمام فرددنا عليه فى المنار غير مرة ؛ ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك ، وهذا شهر رابع ولم تصدر الجامعـــة فنعلم هل هى مصرة على الخصام ؟ أم ثابت إلى الوفاق والوئام ؟ والذى هو أولى بها فى دار الإسلام ؟

الجواب عن هذا الاستفهام

إن فرح أفندى أنطون صاحب مجلة الجامعة انقطع عن إصدار مجلته وعن كل عمل زمناً طويلا ألف فيه كتاباً فى فلسفة ابن رشد للرد على الإمام ظن أنه يكون مصدر ثروة له وشهرة يعد بها من أقران الإمام ، فكان سبباً لزيادة سقوط قيمته العلمية والأدبية ورددنا عليه فى المنار رداً أظهرنا فيه جهله فيما كتب ، وخطأه فيما نقل ، وكانت عاقبة ذلك أن بطلت مجلة الجامعة فلم يعد يقرؤها أحد واشتغل آخر عمره بتأليف القصص التمثيلية فكانت أولى به من الاشتغال بالفلسفة الإلهيه والمادية ، وكل ميسر لما خلق له .

ونختم هذا التقريظ بأبيات من نظم أحمد أفندى الكاشف الشاعر المشهور بالإجادة يقرظ بها المقال مخاطباً لكاتبه وهى :

سلاماً حجة الإسلام فينا ورضواناً رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحياً يؤيد وحى ملهمك المبينا
فلم تترك لمتهم مكاناً يزى فيه المزاعم والظنونا
فما بطل يخوض الحرب فرداً فما يدعو بآخر مستعينا
جهاداً فى سبيل الله يفدى بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثاراً وذكراً وقدراً فى قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفاً وكان كتابك الدرع الحصينا
ملكت به معاقل عاليات نبت عنها سيوف الفاتحينا
وما ضر الضلال الخلق حتى نفعتهم وأوضحت اليقينا
فرفقاً بالمكابر قد كفاه مجادلة وأوشك أن يدينا
ودعه فى تأمله عساه يجيئك باعتراف المهتدينا
فلو سلكت ملوك الشرق يوماً سلوكك بيننا دنيا ودينا
تمادى الحق متبعاً مصوناً وقام الملك ممتداً أمينا
وعاش التاج مؤتلقاً رهيباً ودام العرش معتزاً متينا
ومثلك لو تحكم مستبداً فقد ملأ الضمائر والعيونا

تم والحمد لله

فهرس « الإسلام والنصرانية »

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0407411